سيدات نساء أهل الجنة

خديجة بنت خويلد — فاطمة بنت محمد ﷺ

مريم بنت عمران — آسية بنت مزاحم

تأليف

د. موسى الخطيب

أستاذ بجامعة الأزهر

اسم الناشر

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده
خلف الجامع الأزهر ت ٥١٠٩٨٨٧

رقم الإيداع ١٨١٨٧ / ٩٩
I . S . B . N 977 - 5096 - 58 - 8



مقـدمة

سيدات نساء أهل الجنة

الحمد الله الذى اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين فكان منهم للناس الأسوة الحسنة فى النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وبعد فهذا الكتاب نقدِّم فيه لقرائنا الأعزاء لمحات طيبات عن سيدات نساء أهل الجنة : خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية رضي الله عنهن ، وقبل أن أبدأ الحديث يطيب لى أن نتعرف على نساء أهل الجنة : يقول تعالى فى تبشير المؤمنين بالجنة : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهّرة ﴾[1] قيل فى صفات أزواج المؤمنين فى الجنة أنها مطهّرة من القذر والأذى ومن الحيض والغائط والبول والبذاق والمنى والولد ومن المآثم .

ويقول الله تعالى : ﴿ إن المتقين فى مقام آمين ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ كذلك وزوّجناهم بحور عين ﴾ أى : هذا العطاء الربانى إلى جانب ما أنعم الله به عليهم من الزوجات الحور العين الحسان اللائى ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ، ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ ، ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[3] . قال ابن أبى حاتم من حديث أنس - رفعه نوح - « لو أن حوراء بزقت فى بحر لُجن ، لعذُب ذلك الماء لعذوبة ريقها » ويقول اللهّ تعالى : ﴿ وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾[4]. وحُور جمع

---

(١) البقرة : ٢٥ (٢) الدخان : ٥١ - ٥٤

(٣) الرحمن : ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ . (٤) الواقعة : ٢٢ - ٢٣

حوراء حيث يشتد بياض عينيها وسوادهما وتستدير حدقتهما ، وترقّ جفونهما مع شدة بياض الجسد ، والعين - بكسر العين - جمع عَيْناء وهى واسعة العين .

ويقول الله تعالى فى صفات الحور العين : ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان ﴾[1] (فيهن) أى فى الفرش (قاصرات الطرف) غضيضات عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا فى الجنة شيئا أحب إلىّ منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك » وهن « أبكار عُرُب[2] أتراب[3] » لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة .

عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتى تليها على أضوأ كوكب دُرّى فى السماء لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان ، يُرى مُخّ سوقهما[4] من وراء اللحم ، وما فى الجنة أعزب »

وهذا الحديث مخرّج فى الصحيحين ، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لغدوة فى سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا[5] ، ولطـــاب ما بينهمـــا ، ولنصيفهـــا[6] على رأســـها خيرٌ من الدنيا وما فيها »[7] .

(١) الرحمن : ٥٦ . (٢) عُرُب : جمع عروب أى المتحببة إلى زوجها .

(٣) أتراب : أمثال فى السن .

(٤) أى يُرى خالص ساقها وذلك إشارة إلى بياضها الذى يُرى من وراء سبعين حُلة من الحرير كما فى أحاديث أخرى . (٥) ريحا : عطرا .

(٦) نصيفها : خمارها . ويقول مالك بن دينار - شعراً - فى الحور العين مخاطبا نفسه :

لها النوم عن طلب الأمانى	وعن الأوانس فى الجنـــان
تعيش مخلداً لا موت فيها	وتلهو فى الخيام مع الحسان
تيقظ من منامــك إن خيراً	من النـــوم التهجد بالقران

(٧) رواه الإمام أحمد فى مُسْنده

كان هذا عن نساء أهل الجنة فماذا عن سيدات نساء أهل الجنة ؟

السيد الحق هو الذى يثنى عليه ربه ويشهد له ، والسيدة الفاضلة هى التى يرضى عنها ربها ، ويتقبلها بقبول حسن ، وأفضل النساء هنّ اللواتى يحُزن جنات النعيم ، ونساء أهل الجنة يتفاضلن ، وسيدات نساء أهل الجنة كما ورد فى صحيح الأحاديث : أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى ، وابنتها كريمة المصطفى السيدة فاطمة الزهراء ، والسيدة مريم العذراء عليها السلام والسيدة آسيةبنت مزاحم ، ﷺ وأرضاهن ، ففى مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوى ، ومستدرك الحاكم ، بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض أربعة خطوط ، ثم قال : « تدرون ما هذا؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم · قال : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »[1].

وهؤلاء الأربع نماذج رائعة للنساء الكاملات الصالحات ، فأمُّ المؤمنين السيدة خديجة الكبرى هى التى أعانت زوجهـا صلى الله عليه وسلم على عبادته فى خلوته ، الليالى ذوات العدد فى غار حراء بعيداً عن المجتمع الفاسد الذى سفهت نفوس أهله فنحتوا الأصنام وعبدوها من دون الله وهى أحجار لا تضر ولا تنفع !

وهى الصّديقة التى آمنت بالرسول ﷺ من غير تردد ، وثبّتته ، وواسته بنفسها ومالها ، وقد بشّرها ربها فى حياتها بقصر فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب[2] ، فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى اللهّ عنه قال " ﴿ أتى جبريل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشِّرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤ ، ١٣) ، ورقم الحديث : ٨ · ١٥ ·

(٢) رواه البخـارى فى كتـاب المنـاقب ، باب تزويج النبى ﷺ خديجـة وفضلها ، فتح البارى : ٧ / ١٣٣ ، والحديث مروى فى هذا الباب من طرق أخرى عن عائشة وعبد الله بن أبى أوفى ·

فيه ولا نصب » أما السيدة فاطمة الزهراء فهى البضعة المحمدية للنبى كرّمها الله تعالى وزوجها الإمام عليا فجعل منها ذرية نبيّه ﷺ .

« فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجيالا طوالا ، ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا ، وفيما يلى من العصور .

« وفى كل دين توجد للأنوثة الكاملة يقوم بتقديسها المؤمنون كما أنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى .

« فإذا تقدّست فى المسيحية مريم العذراء ، ففى الإسلام لاجرم تتقدس صورة فاطمة البتول »[1] .

فهى الطاهرة والبتول ، زهرة المصطفى ، خير نساء العالمين ، وسيدة نساء أهل الجنة ، وأفضل نساء العالمين ، زوج الإمام على ، وأم الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة وهم أهل البيت ، ومنهم ذرية المصطفى ﷺ . قال الله تعـالى : ﴿ إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[2] وروى الحاكم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزلَ ملَك فبشّرنى أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

والسيدة مريم العذراء ، التى شرّفها الله تعالى بتكريم خالص فى مواضع شتى من الكتاب العزيز ، وهو يذكر اسم العذراء دائما « مريم » حتى بلغ ذلك أربعا وثلاثين مرة فهى الصّديقة البتول الطاهرة التى تربّت فى حجر الفضيلة وأثنى عليها الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجهـا فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتـــبه وكانت من القانتين ﴾[3] . وكانت مريم عليها السلام آية فى مولدها للمسيح عليهما السلام ، آية فى طهارتها وبتوليتها ، وآية فى شخصيتها كقول القرآن :

﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾[4] وبهذه الفضائل كلها استحقت مريم عليها السلام أن تكون كما أرادها الله سيدة نساء العالمين فى الجنة . قال تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[5] . وأما ما

---

(١) فاطمة الزهراء للأستاذ عباس محمود العقاد .
(٢) الأحزاب : ٣٣ — (٣) التحريم : آية ١٢
(٤) الأنبياء : ٩١ — (٥) آل عمران : آية ٤٢ .

يتصل بالسُّنة النبوية فحديث رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى سعيد قوله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » - ·

فذلك هو تكريم الإسلام والمسلمين لمريم ، يُطهّرونهـــا ويعلون من قدرها ، ويرفعون ذكرها ، ويضربونها مثلا لشرف الدنيا والآخرة ·

والسيدة المؤمنة آسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) ؛ هى التى رعت سيدنا موسى عليه السلام فى حال صباه وربته واتخذته ابنا وحفظته من كيد فرعون ، ثم آمنت به وصدّقت برسالته ، ولاقت فى سبيل إيمانها ما لاقته من العذاب على يد فرعون وزبانيته فاحتملت صابرة حتى استُشهدت فى سبيل الله وهى الصدّيقة التى شرف الله بها مصر ، فاستحقت أن تكون مثلا للمؤمنين ، ومنّ الله عليها بالرضوان ، وأنعم عليها بقصر فى أعلى غرف الجنان ، قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾[1].

وروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم ، فاطمـــة ، وخديجة ، وامرأة فرعون »

وإذ نقدّم للقراء هذا الكتاب فإننا نأمل أن ينفع الله به من يطّلع عليه ، وأن يعتز كل مسلم ومسلمة بدينه ويُرضى ربه فيه ، ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار · ربنا وآتنا ما وعدتنا على رُسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تُخلف الميعاد ﴾[2] ·

* * *

---

(١) سورة التحريم : آية ١١ ·

(٢) آل عمران : آية ١٩٣ ، ١٩٤ ·

الفصل الأول

سيدة نساء أهل الجنة
وأكمل النساء ، وخير نساء العالمين
وأم المؤمنين

السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها

أتى جبريل النبى ﷺ فقال : " هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتت فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشّرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " متفق على صحتـــــــه فقال ﷺ : " يا خديجة هذا جبريل يُقرئك السلام من ربك، فأجابت : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام "

رواه البخارى

وفاء النذر

عبد المطلب جد النبى ﷺ وشيخ قريش بلا منازع . عانى من قريش عند حفره بئر زمزم ، ولم يكن معه وقتها سوى ابنه الحارث الذى وقف يذود عن أبيه بمفرده فى هذا الموقف العصيب وفى هذا الزمان الذى تُحسب فيه للكثرة العددية ألف حساب .

عندئذ نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة من الذكور ثم بلغوا رشدهم ، حتى يمنعوه ، لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة . فلما بلغ عددهم عشراً ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه ، وقالوا : كيف نصنع ؟

قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم أتونى ، ففعلوا .

عبد المطلب يحتكم إلى القداح

ذهب عبد المطلب وبنوه إلى صاحب القداح ، فقال له عبد المطلب : اضرب على بنيّ هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخيره بنذره الذى نذر ، وكان عبد الله والد النبى محمد ﷺ ، أحبّ أولاد عبد المطلب إلى قلبه ، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى(١).

ثم ضرب صاحب القداح السهم مرتين وفى كل مرة يخرج السهم على عبد الله

أخذ عبد المطلب ابنه عبد الله بيده ، واستحد شفرته ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه .

هنا ثارت ثائرة قريش وبخاصة الفتيان من شبابهم .

وتوجهوا إلى عبد المطلب وقالوا جميعاً فى نفس واحد :

والله لن ندعك تذبح عبد الله حتى تُعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه فتصير عادة بين العرب ... فما بقاء الناس على هذا .

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أحد كبار رجالات قريش وخال ابنه عبد الله :

والله لا تذبحه أبداً .. حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ، وقال له بنوه كذلك .

ثم أشاروا عليه أن يعرض أمره على عرّافة بالحجاز زعموا أن لها تابعاً ... لكى يسألها الرأى والمشورة فما أشارت به يمضه من وقته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة - فوجدوها فيما يزعمون بخيبر -

---

(١) أشوى ، أبقى .

فجاؤوها .. وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه عبد الله وما أراد به ونذره فيه .

فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم قالوا : عشراً من الإبل ، وكانت كذلك .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم وقرّبوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم ، فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا من عندها ، وقد أجمعوا على ذلك الأمر حتى قدموا مكة ، ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل وهم يضربون القداح فيخرج السهم على عبد الله ، فيزيدون فى عدد الإبل ، حتى صارت مائة فخرج السهم على الإبل ، ثم أعادوا الكرة فخرج السهم على الأبل .

فقالت قريش ومن حضر : الآن قد رضى ربك يا عبد المطلب ، ثم نُحرت الأبل .

وهكذا كتب الله النجاة لعبد الله والد النبى محمد ليعيد إلى الأذهان ذكرى الذبيح الأول إسماعيل بن إبراهيم جد العرب العدنانية .

وصدق النبى الكريم صلوات ربى وسلامه عليه حين يصف نفسه بأنه « ابن الذبيحين » .

وتمضى الأيام والسنوات ويتزوج عبد الله بأفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعاً ، بالسيدة آمنة بنت وهب والدة النبى ﷺ فتحمل بأكرم خلق الله حسباً ونسباً بسيدنا محمد ﷺ . ولكن سرعان ما يموت والده عبد الله .

* * *

أنوار الوليد وبركاته

لما وُلد ﷺ ، أرسلت أمه آمنة إلى جده عبد المطلب ، فلما جاءها وجد سحابة قد أظلت حجرتها ، فجعل يمسح عينيه ويقول : أنا نائم أو يقظان؟ فلما فتحوا له الباب إذ المسك يفوح من حجرتها فاستخبرها فقالت : يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب .

فذعر عبد المطلب وقال : أليس بشراً سويا ؟

فقالت : نعم ، ولكنه حين ولادته خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وسبابته إلى السماء .

فقال عبد المطلب : دعيني أنظر إليه ، وحمله بين يديه ، وقام به إلى الكعبة ، فشكر الله على إنعامه ، ودعا له وهو يطوف به الكعبة وينشد :

الحمد لله الـــــذى أعطانى هـــذا الغلام الطيب الأردان[1]

قد ساد فى المهد على الغلمان أُعيـــــذه بالبيت ذى الأركان

من حاســـد مضطرب العنان حتى أراه بالغ البنيـــــــان

ويتألق البوصيرى فى همزيته وهو يشير إلى أمر ولادته ﷺ ورفع الرأس إلى السماء فيقول :

وتوالت بشرى الهواتــــف أن قد وُلد المصطفى وحق الهنـــــاء

يوم نالت بوضعــــــــه ابنة وهب من فخــــار ما لم تنله النساء

رافعاً رأســـــــــه وفى ذلك الرفع إلى كل سؤدد إيمـــــاء

رافعاً طرفه إلى السمـــاء ومرمـــى عين من شأنه العلوّ العـــــلاء

ويومها ذبح عبد المطلب الذبائح ، احتفاء بالمولود السعيد ، وأطعم أهل الحرم حتى سباع الطير ووحش الفلاة .

---

(١) الأردان : مفردها ردن وهى الأكمام ، وطيبها كناية عن طيب أخـــلاقه وكماله ﷺ .

وكانت مكة حين استقبلت بشرى المولود المبارك ما تزال تحتفل بفرحة نصرها على أهل الفيل ، فربطت بين ميلاده المبارك وذلك النصر العزيز ، فقد قال ابن عباس : إن المولد كان يوم الفيل ، فجر يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول (أبريل ٥٧١ م) .

ويرحم الله أمير الشعراء ، أحمد شوقى حيث يقول فى همزيّته :

يومٌ يتيه على الزمان صباحه ومســـاؤه بمحمد وضّاء

والآى تترى والخوارق جمةٌ جبريل روّاح بها غـــدّاء

وأبلغ البيان ، آى الذكر الحكيم فى القرآن قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجّيل . فجعلهم كعصف مأكول » (سورة الفيل) .

وسمّاه جده عبدُ المطلب « محمداً » ، ولم يكن ذلك الاسم شائعاً بين العرب فى ذلك الوقت .

كما لم يفت قريش أن تسأل شيخها عبد المطلب . لِمَ سمّى حفيده محمداً ؟

فأجاب : أردت أن يكون محموداً فى الأرض وفى السماء .

وكما كانت عادة شريفات قريش أن يدفعن بأولادهن إلى مرضعات البادية لكى تصح أجسادهم وتفصح ألسنتهم ، فقد استقبل عبد المطلب مرضعة حفيده « حليمة السعدية » من بادية بنى سعد، وسألها من أنت ؟

فقالت : امرأة من بنى سعد .

قال : ما اسمك ؟ قالت : حليمة .

فتبسم وقال : بخ بخ ، سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد .

وتحكى حليمة قصتها مع الوليد المبارك فتقول إنها وضعت يدها على صدر الوليد المبارك ، فتبسّم ضاحكاً ، وفتح عينيه ونظر إليها ، فخرج منهما نور صعد إلى السماء .

قالت : وأنا أنظر إليه فقبّلته بين عينيه ، وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن ، فحولته إلى الأيسر فأبى فناولته لأخيه من الرضاع .

وأضافت تقول : فروى ، ثم روى أخوه .

ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلى ، وقام زوجى إلى شارفنا[1] من الليل فإذا بها حافل[2] ، فحلب وشرب ، وشربت حتى روينا ، وبتنا بخير ليلة .

فقال زوجى : يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ، فلم يزل الله يزيدنا خيراً .

وكانت حليمـــــة ترقّصُ الوليد المبارك وتقـــول :

يا رب إذ أعطيتـــه فأبقه وأهله إلى العُلا وأرقـــه

وادحض أباطيل العِدا بحقه

وتوالت بركات الوليد ... تقول حليمة السعدية : قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب ، وما يحلب قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضر من قومنا يقول لرعاتهم :

ويلكم ! ألا تسرحون حيث يسرح راعى حليمة ؟!

فيسرحون فى الشّعب الذى نسرح فيـه ، فتروح أغنامهم جياعاً ما بها لبن ، وتروح غنمى لُبّنا ، فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرفها ببركته ﷺ .

---

(١) الشارف : الناقة المسنة .

(٢) حافل : ممتلئة الضرع باللبن .

وألقى الله محبته فى القلوب فكانوا إذا نزل بأحـــدهم أذى فى جسده ، أخذ كف الوليد المبارك فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى . ومن نزل به ضر فى عينيه . مسح بيد الوليد المبارك على عينيه فيبرأ بإذن الله تعالى . . .

وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة أو فرس فيأخذون بيده المباركة فيمرون بها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله عز وجل .

ولقد كان يمس ضرع الشاة للقوم فتحلب غبوقاً[1] وصبوحاً[2] .

قالت : وما على وجه الأرض شيء تأكله دابة ، وأنبت الله ببركته ﷺ الأرض فأعشب الوادى .

وكانت ابنة مرضعته حليمة السعدية ، الشيماء ، تحضن الوليد المبارك ، وترقصه وتقول :

هـــــذا أخ لى لم تلده أمى — وليس من نســـل أبى وعمى
فديتــــه من مُخْوَلٍ[3] مُعَمِّ[4] — فأنمه اللهم فيمــــا تنمى

كما كانت تقول :

يا ربنـــا أبق أخى محمدا — حتى أراه يـافعــاً وأمـــردا
ثم أراه ســـيداً مســـودا — وأكبت أعاديـــه والحسّـدا
وأعطـــه عزّا يدوم أبـــدا

أقام محمد فى بادية بنى سعد بن بكر أربع سنوات ، كان خلالها موضع رعاية « حليمة السعدية » التى أرضعته ، وابنتها الشيماء التى حضنته كما علمنا ، وأبنائها الذين رافقوه ولعبوا معه . وقد كسب محمد ﷺ الكثير من صفات البادية ، نذكر منها ملكة النطق وصفاء الذهن ، وأكسبته صحة النفس وصلابة الخلق وفصاحة اللسان .

---

(١) غبوق : ما يشرب بالعشى .
(٢) صبوح : ما يشرب فى الصباح .
(٣) مخول : كريم الأخوال .
(٤) معم : كريم الأعمام .

مرارة اليتم عبر السنين

عاد محمد إلى مكة وهو فتى فى الخامسة من عمره ، ليكتمل يتمه ، فقد وافت المنية أمه فى أثناء الرحلة التى أخذت فيها « محمداً » ﷺ ، لزيارة أخواله من « بني النجار » في يثرب (المدينة المنورة) وبالمكان الذى توفى فيه أبوه . وقد تركت وفاة أمه أثراً عميقاً مؤلماً فى قلبه ، وما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمّه وأمه زمناً ، ثم أوحش من بعدها وخلا !

وما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعى خارج مكة ، فإذا حان المساء وآن له أن يعود إلى منزله ، توقف برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه ، وهو عائد من رحلته الأولى إلى يثرب ، وحيداً ، محزوناً مضعضع الحواس ، مضاعف اليتم ، بفقد أمه ، وهو يتبع جاريته «.بركة » وانى الخطو صامتاً واجماً .. يسعى إلى بيت جده الشيخ عبد المطلب .

وعبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب ، وقصىّ هو الزعيم العربى الذى وضع أمجاد قريش ولمّ شملها ، ووحد كلمتها . فحظيت بالهيبة وشرف المنزلة بين العرب جميعهم .

وجاء من بعده حفيده عبد المطلب فاستطاع بقوة شخصيته أن يتولى أبرز المناصب في مكة وهي : « السدانة » أى الإشراف علي الكعبة ، و« السقاية » وهي توفير الماء للحجاج ، و« الرفادة » وهى توفير الطعام ، والقيادة وهى إمارة القوم فى القتال والتجارة .. لهذا قال النبى ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كناية قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار » .

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروّع صباه بفقد أمه عامين كاملين .. وهو يضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز .. مُحمد .

لكن الزائر المرهوب الذى ألمّ بآل الغلام ، فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من

جديد فطوف بحى بنى هاشم ، وتلبّث برهة حول فراش عميـــدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل · ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أباً بعد أبيه · · ·

وأصغى فى حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر وهو يدعو إليـه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه عبد الله ثم يمضى · · ·

وانتقل الصبى من بعده إلى منزل جديد ، وألف لدى عمه أباً ثالثاً · · · لكنه ظل يفتقد الأم ·

وبقى على مر الأيام والشهور والسنين يذكرها · · · ينزع نحو مرقدها الأخير وقلبه هناك معلق « بالأبواء » ·

ولم تستطع مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول « البيت العتيق » فى « أم القرى » أن تطوى فى متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه ووفاتها قرب « الأبواء » · وإذ تتكاثف الظلمة من حوله ، يجمع نفسه فى جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه وفى نفسه إحساس مرهف بفراق وشيك فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى أواه سبعة عشر عاماً ، وحسب العم أن يحمل من أعباء بنيه الكثار ·

ولكن إلى أين ؟

إلى الشام مؤقتاً كما أراد له عمه فى صباح يومه ذاك ، فلقد حدَّثه فى مطلع شمس هذا اليوم عن رحلة مرجوَّة الخير ، كان الصادق الأمين · · إذ ذاك قد بلغ خمساً وعشرين سنة ، وقد تم له رُشد الشيوخ ، وتجربة الحكماء ، وروية العقلاء ·

وهذا ما دعا عمه أبا طالب أن يقول له : « يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك ،

لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من اليهود . وقد بلغنى أن خديجة استأجرت رجلاً ببكرين . . ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك فى أن أكلمها ؟!

فكان جواب البار الرشيد : ما أحببت يا عم .

خديجة بنت خويلد

ليعلم القــارىء . . أنـه حين أشرقت على الدنيـا أنوار ذلك المبـــارك « محمد » ﷺ كانت الفتاة الطاهرة « خديجة » حسناء فى سن الزواج ، وقد أضاف إلى حُسنها وجمالها عراقة الحسب والنسب ، فتزوجت من « عتيق المخزومى » فمات تاركاً لها بنتاً ومالاً وتزوّجت من بعده أبا هالة بن زرارة التميمى فمات وترك لها طفلين .

فزواج السيدة الطاهرة خديجة لم يدم إلا بضعة أعوام ، عاشت بعدها ترعى بنيها الصبية الأيتام ، متسلية بهم عن فقد الزوجين واحداً بعد واحد ، ورأت ألاّ تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفد فى نفقات المعيشة ، فتاجرت فيه وهى محتجبة فى بيتها ، فكانت تستأجر رجالاً يعملون فى التجارة لحسابها لقاء أجر فيكون لها ربح التجارة وللأجراء أجر العمل .

التجارة الرابحة

سار أبو طالب إلى السيدة الطاهرة[1] وقال لها : هل لك يا خديجة أن تستأجرى مُحمداً ابن أخى ؟

فأجابت من فورها : لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته للقريب الأمين .

وأرسلت السيدة خديجة إلى الصادق الأمين[2] تستدعيه للخروج فى تجارتها .

وقالت له : دعانى أن أبعث إليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلاً آخر من قومك .

---

(١) كان هذا لقبها فى قومها .

(٢) كان هذا لقبه الذى لقبوه به قبل مبعثه ﷺ .

وقد أخبر « مُحمد » عمه بحديث خديجة ، فسُرَّ بذلك .

وقال : يا مُحمد هذا رزق ساقه الله إليك .

وتهيأت عير قريش للرحيل إلى الشام ومعهم الصادق الأمين محمد فى تجارة خديجة ومعه غلامها ميسرة .. حتى أتت القافلة بُصرى فباع أهل القافلة واشتروا وقايضوا ...... وراجت تجارة خديجة رواجاً غير مسبوق فربحت تجارتها على يدى الصادق الأمين ضعف ما كانت تربح ، وسُرَّ ميسرة بما رأى من رواج التجارة ، فقد كان وفيا لسيدته مُعجباً بفضلها . وساعد الربح الوفير على العودة بقدر من البضاعة لم يُخطر لها على بال .

وقد شاهد ميسرة فى سفره عجباً ، فقد رأى غمامة تظل الأمين منذ غادر مكة إلى عودته فتقيه حرّ الشمس ، وأنه خلا بنفسه يفكر ، فجلس تحت شجرة عظيمة الساق ، كثيرة الفروع ، وارفة الظلال ، وإذا براهب يدعى نسطورا ؛ كان يعرف ميسرة من قبل ؛ يقدم عليه ويسأله : من يصحبك يا مسيرة ؟

أجاب : شاب من قريش .

فقال نسطورا : ما الذى تعرف من صنعته ؟

أجاب : الأمانة ، والنزاهة وكرم الخلق ، وجلوسه الساعات الطوال يفكر ...

فسأله : وما شكل عينيه ؟

أجاب ميسرة : واسع العينين أدعجهما ، تشوب ببياضهما من الجوانب حُمْرة خفيفة ، تزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال ، سود حوالك .

فقال نسطورا وهو يشير إلى حيث يجلس الأمين . يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة ، وتظله هذه الغمامة المنخفضة ليس إلا نبيا ، فازداد ميسرة بالصادق الأمين إعجاباً فوق إعجاب !

ثم قال له يا مُحمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فاكشف لى عن كتفك ، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ بين كتفيه ، فأقبل عليه يقبّله ، فظن القوم أن الراهب يريد بالأمين شراً ، فاستلّ بعضهم سيفه وصاح : يا آل غالب ، يا آل غالب ، فأقبل الناس يُهرعون إليه من كل ناحية .

وقالوا : ما الذى راعك ؟!

فلما رأى الراهب ذلك دخل صومعته وأغلق بابها ، ثم أشرف عليهم وفي يده صحيفة .

ثم قال : يا قوم ما الذى راعكم منى ؟

فوالذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين ، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر ، وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ، ومن عصاه فقد غوى .

وانفضّ القوم غير مكترثين بقول الراهب نسطورا .

وبينما تسير القافلة إلى مكة وفى طريق عودتها ، يصيب الكلل بعيرين من الإبل التى يتعهدها ميسرة ، ويحاول عبثا أن يحملهما على مسايرة الركب بلا جدوى . . . فيرفع أمرهما إلى الأمين . . . الذى مسح بيده الشريفة على أخفافهما ثم أمسك بمقودهما وقادهما ، فسارا خفافاً فى نشاط ظاهر ، كأن لم يكن بهما شيء .

فازداد ميسرة بتلك الخوارق إعجاباً على إعجاب .

فلما كانت القافلة بمرّ الظهران ، اقترح ميسرة على الأمين إن يسبق القافلة إلى مكة ليبشر سيدته بالربح الوفير الذى جاءها على يدى الأمين .

ولما وصل ميسرة إلى سيدته خديجة ، قص عليها ما رأى وما سمع . . .

ثم علا ضجيج الركب مختلطاً بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التى أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة فمضى « مُحمد » على بعيره قاصداً دار خديجة بعد أن طاف بالبيت العتيق .

وكانت خديجة هناك فى دارها ، ترقب الطريق من علية لها فى لهفة مشوبة بشىء من القلق ... وما زالت تملأ أذنيها بحديث غلامها المثير ميسرة عن رحلته مع مُحمد ، حتى ظهر لها أخيراً وهو يدنو بطلعته البهية ، وملامحه النبيلة ... فلما وصل إلى الدار اندفعت لتستقبله لدى الباب مرحّبة ، مهنئة بسلامة العودة فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحناناً ...

ورفع إليها الأمين وجهه شاكراً ، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره ، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وتجارته وما جاءهــا به من طيبات الشام ... وأنصتت إليه شبه مأخوذة ، حتى إذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق ، واتجه هو إلى منزل عمه « أبى طالب » وهو يحس شيئاً من الرضى والارتياح ، أنه عاد من رحلته موفقاً سالماً لم يمسسه أذى من يهود .

الزواج المبارك

قالت خديجة لنفسها : نعم الشاب محمد بن عبد الله ؛ أمين صادق كامل الرجولة . أين فى العرب مثل محمد ؟

وحارت فى أمرها كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة بعد أن نفضت يديها من الرجال ، أو خرجت فى حساب بيئتها من حياة الرجال ؟ وكيف تلقى به قومها وقد ردت عن بابها الخُطّاب من سادة قريش وسُراة مكة ؟

وفى غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها « نفيسة بنت منية » ، فلم يغب عنها الذى تجده صاحبتها ، وسرعان ما كشفت لها عن سرها الـمطوى .

وهوّنت نفيسة الأمر عليها ، فما فى نساء قريش من تفوقها نسباً وشرفاً ، وهى بعدُ ذات غنى وجمال ، وكل قومها حريصون على الزواج منها لو يقدر عليه .

ثم تركتها وقد اعتزمت أمراً .

فذهبت السيدة نفيسة إلى بيوت بنى هاشم تنشد الصادق الأمين ، حتى إذا رأته فى أحد بيوت عماته انتهزت خلوة به فسألته فى ترفق وإغراء فيم عزوفه

عن الدنيا . وقضاؤه على شبابه بالحرمان . . . هلاّ سكن إلى زوجة تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته ؟

أجاب الأمين : ما بيدى ما أتزوج به .

قالت نفيسة : فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب ؟

فقال الأمين : فمن هى ؟

قالت : خديجة . قال : بنت خويلد . قالت : نعم .

فقال فى ابتهاج : وكيف لى بذلك ؟

قالت نفيسة : علىّ ذلك . فقال الأمين : وأنا قد رضيت .

وأشفق أن تبعد به أمانيه ، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها ، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فإذا كاهنة تلقاه فى طريقه ، فتستوقفه سائلة :

جئت خاطباً يا محمد ؟

فأجابها صادقاً : كلا .

قالت : ولمَ فوالله فما فى قريش امرأة ، وإن كانت خديجة لا تراك كفئاً لها .

ثم لم تكُ إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقّى دعوة « خديجة » فسارع إليها ملبياً وفى صحبته عمُّه « أبو طالب وحمزة أبناء عبد المطلب » وهناك فى بيتها ألفوا قومها ينتظرون ، وكل شىء مهيأ لزواج سريع . . وتكلم أبو طالب فقال :

« أما بعد ، فإن محمداً ، ابن أخى ، ممن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجحه شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان فى المال قِلّ ، فإن المال ظل زائل وعاريةٌ مُستَرجَعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك » .

« فأثنى عليه عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وأنكحها منه على صداق قدره عشرون بكرة » .

ولما انتهى العقد ، نُحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء فإذا بينهم « حليمة السعدية » قد جاءت من بادية بنى سعد لتشهد عُرس ولدها الذى أرضعته ·

فإذا بالصادق الأمين يقوم إليها مستقبلاً ، ويهش فى وجهها ويرحب بمقدمها فى حنو بالغ وقد بسط لها رداءه لتجلس عليه وهو يقوم : أُمى · · · أُمى ·

وهز ذلك العطف أحاسيس السيدة خديجة فذرفت عيناها الدموع ، وأجزلت العطاء لأم زوجها الحبيب من الرضاع ، وعادت حليمة فى الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم هدية من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت زوجها الحبيب ·

« وتندت عينا » مُحمد وهو يتفقد أمَّه « آمنة » فى موقف يتمنى كل زوج فيه أن يجد إلى جواره أمه · · · فإذا يد لطيفة تأسو جرحه القديم فى حنان غامر · · · وإذا به يجد فى خديجة عوضاً جميلاً عما قاساه من طول حرمان ·

وزفت سيدة قريش إلى زوجها ، وسعد الزوجان بالمودة والرحمة التى قامت بينهما واستقرت · · فعرفت فيه أُمنا الكبرى زوجاً كاملاً أكمل ما يكون الزوج كما عرفته من قبل أميناً أكمل ما يكون الأمين ·

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاماً ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة ·

« وأرخى الزمن لهما من حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواماً ذات عدد ، ارتوى محمد خلالها من نبع الحنان ، معرضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزود لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام ·

وقد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولدين العزيزين ، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التى تدور على الناس جميعاً فلا يمنع من شربها أحد · وما كان ولداهما إلا وديعة ولا بد يوماً أن تُسترد الودائع ·

نزول الوحى ورسالة السماء

كان الصادق الأمين يُنكر على قومه عبادتهم للأصنام التى تكدست حول الكعبة ، وكان كفار مكة يتذرعون فى عبادتهم لها بما وجدوا عليه آباءهم « أولَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولايهتدون » (البقرة : ١٧٠) .

فكان يذهب إلى غار حراء يخلو فيه إلى نفسه متعبداً فى صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه ثم هدى واستطاب رياضته الروحية التى يحس خلالها كأنها يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم .

كان الصادق الأمين قد شارف الأربعين ... وأحاطت أمنا الكبرى زوجها الأمين بالعطف والرعاية فى مسلكه هذا . وما كانت « خديجة » فى وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحياناً ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت فإذا انطلق إلى غار « حراء » ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه وحدته .وهكذا بدأ كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة .

وحين أذن الله .. وجاءه جبريل فى غار حراء أول مرة فقال : اقرأ .

فقال : ما أنا بقارىء .

فضمه الملك ضمة شديدة ثم تركه وقال له : اقرأ .

قال مُحمد : ما أنا بقارىء .

فضمه المَلَك ضمة ثانية حتى بلغ منه الجهد وأضناه وقال له : اقرأ .

فقال : ما أنا بقارىء .

فضمه المَلَكَ ضمة ثالثة حتى بلغ منه الجهد .

وفى رواية ، يقول الصادق الأمين : « حتى ظننت أنه الموت » ثم أرسلنى ... فقلت ماذا أقرأ ؟

(ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لمثل ما صنع) قال الملك : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ۰ خلق الإنسان من علق ۰ اقرأ وربك الأكرم ۰ الذى علّم بالقلم ۰ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ١ – ٥) ۰

قال : فقرأتها ، وحفظتها ۰۰ ثم اختفى جبريل عن عينيه وكانت هذه أول سورة نزلت فى القرآن الكريم ۰

ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها — لم تتصل قبل من قيلت له بفم

هناك أُذّن للرحمن فامتلأت — أسماع مكة من قدسية النغم

فرجع بها رسول الله ﷺ يلتمس داره ، حتى دخل على خديجة ، رضي الله عنها ۰

كان خائفاً شاحباً مرتعد الأوصال ، وهو يقول : زمّلونى ۰۰۰ زمّلونى(١)

حتى ذهب عنه الروع ، فقال : يا خديجة مالى ؟

فأخبرها الخبر وقال : قد خشيت على نفسى ۰

فضمته إلى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها وهتفت فى ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ۰

وأشرقت أسارير محمد ، وزايله روعه ، وأحس بالراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم رؤوم بولدها الغالى ، ثم تهدهده بصوتها الشجى وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام ۰

---

(١) أى غطونى ۰

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادىء المطمئن ... ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر حتى إذا بلغت الباب اندفعت تحث خطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » وكان امرءاً تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى .

وجاءته « خديجة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما كاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلاً ، وتدفقت الحيوية فى بدنه الواهن ، فانتفض يقول فى حماس : « قدوس ... قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن صدقتنى يا خديجة . لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، إنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت » .

ولم تنتظر مزيداً من قوله ، بل عادت مسرعة إلى زوجها الحبيب تزف له البُشرى التى زفها إليها ورقة بن نوفل ، ولم تشأ أن توقظه من نومه ، فجلست بالقرب منه منتظرة ، تكاد تذوب نفسها من لهفة عليه وحب وحنان ، وإذا به قد استيقظ ، يتفصد العرق من جبهته ، يبدو كأنه يصغى إلى مُحدّث غير ظاهر ثم يردد ما نقله إليه ذلك المحدّث عن ربه :

﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ، وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾ (المدثر ١ - ٧) . وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها ، وما كادت تبشره بما سمعته من ابن عمها ورقة ابن نوفل ، حتى نظر إليها ملياً نظرة تفيض شكراً وامتناناً .. ثم استدار ونظر إلى الفراش وقال متأثراً :

« انتهى عهد النوم يا خديجة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟ » .

فهتفت من فورها فى لهفة وحماس :

أنا أستجيب لله يا مُحمد ، فادعنى قبل أن تدعو أى أحد وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك .

فكانت ﷺ أول المؤمنات من النساء ، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وكان علىّ أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الحُلم .

ثم استجاب ، ﷺ ، لأمنا الكبرى خديجة رضي الله عنها . . وقام ينشد ورقة فلم يكد يراه حتى صاح :

« والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولتُكَذَّبَنَّ ولتُؤْذَيَنَّ ولتُخرَجَنَّ ولتُقاتَلَنَّ ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

ثم أدنى رأسه إليه وقبله .

فقال له النبى ﷺ : « أو مُخْرِجِىَّ هم ؟ » .

فأجاب ورقة : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ ، ليتنى أكون فيها جذعاً (١) ، ليتنى أكون حيّا .

وطابت نفس الرسول بما سمع ، فأتى إلى بيته مطمئناً ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ليلقى فى سبيلها أفدح ما وعى تاريخ الأبطال من أذى واضطهاد ، ولا عجب فهو سيد أولى العزم من الرسل الذين صبروا على الشدائد فى تبليغ رسالات ربهم لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه .

ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانب زوجها المصطفى تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً . .

وأعلنت قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب وهم قومه حرباً مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة عُلّقت فى جوف الكعبة . . وقد اضطرتهم أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب فى أطراف مكة حيث دام الحصار ثلاث سنوات . . . لم تتردد « خديجة » فى الخروج مع زوجها وتخلت عن دارها الحبيبة ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأحمال الشيخوخة والثكل والاضطهاد . . . تذوق مع الرسول وقومه أهوال الحصار الجائر . . وتكافح الوهن الذى أخذ يدب إلى جسدها منذ جاوزت الستين . متشبثة بالحياة فى نضال رائع . . كيما تظل إلى جانب بطلها فى معركته الفذة ، التى يلقى فيها بقلّة مؤمنة عزلاء ، جبروت الوثنية العريقة المتأصلة ، وجموع القرشيين ذوى العدد والعُدَّة والمال . . .

ولكن إذا لم يكن الوفاء من السيدة خديجة فممن يكون ؟ وهى التى

---

(١) الجذع : الصغير .

آزرت زوجها فى حياته مؤازرة الصدق والإخلاص وقد ظل يذكرها ﷺ ، فى كل مناسبة ولا ينساها أبداً ٠

ثم فشل الحصار أمام ذلك الإيمان الراسخ الصامد وآب الزوجان إلى دارهما الحبيبة فى مكة المكرمة ، ولكن الزوجة الوفية كانت قد أجهدها الإعياء ، واستنفد الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة فى عامها الخامس والستين ٠٠ ورقدت هناك ثلاثة أيام وزوجها الرسول لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ، حتى أسلمت روحها الزكية إلى خالقها راضية بين يدى الذى أحبته وصدقته وآمنت به ٠وكان النبى ﷺ يهون عليها سكرات الموت ويبشّرها بما أعده الله لها من نعيم وحولها بناتها يحطن بفراشها ويودعنها قبل الرحيل ٠

وفى اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث حُملت سيدة نساء قريش وأم المؤمنين الكبرى إلى أرض الحجون حيث أضجعها الرسول ﷺ بيديه الكريمتين فى قبرها ، ثم ودعها وآب إلى بيته محزوناً وصابراً على البلاء المبين ٠

قال ابن إسحق : « فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ،وكانت له وزير صدق على الإسلام » ٠

وبلغت أقصى مداها فى عام خديجة الذى سُمى « عام الحزن » ٠

وخُيلَ إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ٠

فلم تكد تمضى خديجة ٠٠وأمين الوحى جبريل يرعى الرسول غادياً رائحاً يذود عنه اليأس والإعياء ٠ والسابقون الأولون من المؤمنين يفتدونه بالمُهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجداً وانتصاراً ٠

لم تمت « خديجة » ٠٠ إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت مكة إلى أطراف الحجاز وحملها المهاجرون إلى الحبشة ٠

وفى الموسم نفسه ، كان رجال من يثرب يَفِدون إلى مكة ثم لم يلبثوا أن بايعوا النبى ﷺ ، ويعودوا فيبعثوا المدينة كلها لنصرته ٠٠٠

وكانت أم المؤمنين ﵂ تواقة لأن ترى الدعوة الإسلامية ناجحة كل النجاح ، فقد قالت لابنتها أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها :

ليت الأجل يمهلني حتى تنجلي المحنة . فأموت قريرة العين راضية .

فأجابتها أم كلثوم : لا بأس عليك يا أماه .. ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات .

فاستطردت تقول : « أي وربّي لا بأس عليّ يا ابنتي ما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم » .

« بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من مجد ، حسبي من دنياي أني زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبي من آخرتي أنني المؤمنة الأولى ، وأني أم المؤمنين » .

ثم أسبلت عينيها وهمست :

« اللهم إني لا أحصى ثناءً عليك ، اللهم إني لا أكره لقاءك ولكني أطمع في مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت عليّ » ثم فاضت روحها إلى بارئها .

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ، ﷺ ، وملء التاريخ الإسلامي .

نسب أمنا الكبرى ... السيدة خديجة وفطرة التدين

أُمنا الكبرى السيدة خديجة قُرشيّة أباً وأماً . فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر .

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن حبيب بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر .

ويعقب الأستاذ العقاد على النسب المفطور على التدين .. فيقول في كتابه « فاطمة الزهراء » :

« ولدت السيدة خديجة لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل ، والسيادة ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة ، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام .

وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبى وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة ، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية . فأبوها خويلد هو الذى نازع « تُبّعاً » الآخر حين أراد أن يحتمل الركن[1] معه إلى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه ، غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه . وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه الصلاة والسلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها . فركبت إلى ورقة سائلة لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ؛ ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها إذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم إلى كاهن أو كنيسة . وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك فى عبادة الأصنام ، وتجنح به إلى البحث والمراجعة ، عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، ويُنسب إليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أُمية بن أبى الصلت ، ويُروى فى كتب السيرة أنه استغرب على السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته به ، وقال لها إنه السفير بين الله وأنبيائه ، وأن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ، ولا يتسمى باسمه .

« وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة لا يغنينا أن نستقصيها لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة خديجة الأقربين . فهذا ، وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن ، والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، أو من تحول منهم إلى النصرانية .

أُمُّنا الكبرى

ملء الحياة على مرّ الأيام والعصور

« ولكن . . هل ماتت خديجة حقاً ؟

كلا ! . . وإنها لماثلة بين عينى زوجها رسول الله ﷺ ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه ، وما يسرى إلا وسنا مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات . . . وقد ظل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام يذكرها على لسانه وقلبه ما عاش ويرحب بمن ينتهى إليها نسباً أو صداقة .

(١) الحجر الأسود .

قدمت أختها هالة إلى المدينة ، وسمع النبى عليه الصلاة والسلام صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت الراحلة خديجة ، فهش لها رسول الله ، ﷺ ، وهتف بصوت خافق القلب :

اللهمّ هالة .

فلم تتمالك السيدة عائشة رضي الله عنها أن تكتم غيرتها منها ، فقالت :

« ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر أبدلك الله خيراً منها » .

فتغير وجه النبى عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضباً :

« والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

فلم يسع السيدة عائشة إلا أن أمسكت وهى تقول : « والله لا أذكرها بعدها أبداً » .

وقالت له يوماً ، وقد اشتدت غيرتها ، لما ألفته لا ينقطع عن ذكر خديجة ويكثر الثناء عليها :

« كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة » .

فرد عليها ﷺ : « إنها كانت وكانت ... وكان لى منها الولد » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال :

« كان رسول الله ﷺ ، إذا أتى بالشىء يقول : « اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة » أو يقول : « اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت تحب خديجة » .

فلماذا حظيت أُمنا الكبرى السيدة خديجة ، بهذه المنزلة من قلب الحبيب مُحمد ﷺ ؟

يقول العقاد رحمه الله[1] : « لم يجد محمد جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد إلى جانبه قلباً كريماً ، وروحاً عظيماً ، وسكناً تهدأ عنده جائشة ضميره ، وتطمئن إليه خشية فؤاده .

---

(١) كتاب فاطمة الزهراء .

ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن إليها حنكة السن ، وحنان الأمومة ؛ ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة ؟ ، وما أمانة الحق والفضيلة ؟ ، وما عاقبة الصبر على العرواء التى تندك لهـا عزائم ، وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفء لها من بنى آدم وحواء .

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان ، خليق على قلَّته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش .

ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ، ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها ، لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين .

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ، ويتفقد مواطن ذكراها أعواماً بعد أعوام .

إن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب إنسان عظيم » .

ويقول الكاتب الفرنسى « اتنيه دينيه » فى كتابه رسول الله : « كان لخديجة فى نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها ، ورغم أنه كان فى ريعان شبابه فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغرى به . وإذا كانت قد فارقته فإن ذكراها دائماً كانت على لسانه ، وكانت عائشة التى صارت زوج الرسول المفضلة تجد لذع الغيرة وتحس به فى قسوة .

ورغم جمال عائشة ، وما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة ، فإنه كان دائماً يفضّل عليهن خديجة ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجد على ظهر البسيطة . أما الثلاث الأخريات فهن آسية امرأة فرعون التى أنقذت موسى ، ومريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة .

وأثر خديجة فى حياة الرسول ، لا يماثله إلا أثرها فى حياة الإسلام وتاريخه » .

قال ابن إسحق : « كان رسول الله ﷺ ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد

عليه وتكذيبه له فيحزنه ذلك ، إلا فرّجه الله بخديجة رضى الله عنها ، إذا رجع إليهـا تثبته وتخفف عنه ، وتصدقـه وتهون عليـه أمر النـاس حتى ماتت رضي الله عنها .

وتعقب الدكتورة « بنت الشاطىء » فى كتابها القيم « نساء النبى » على ذلك بقوله :

« لقد كانت خديجة ملء حيـاة الرسـول حيـة وميتـة ، وما جـاوزت « عائشة » الحق حين قالت لزوجها الرسول عليه السلام : « كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها » .

وهل كان باستطاعة امرأة سواها ان تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه ؟!

هل كان لأنثى غيرها أن تهىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها - فى إيثار نادر - ما أعده لتلقى رسالة السماء ؟!

هل كان لزوجة عداها ، أن تستقبل دعوته التاريخية من غار « حراء » بمثل ما استقبلته هى به من حنان مستثار وعطف فياض قوى ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبداً .

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانب رجلها فى أحلك أوقـات المحنة وتعينه على احتمـال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهـاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟

كلا ... بل هى وحدها - ولا امرأة إلا مثلها - التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أما وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذاً وسكناً ، وللنبى المبعوث نبع ثقة وطمأنينة وسلام » .

تكريم الله سبحانه وتعالى للسيدة خديجة

روى البخارى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال : « يا محمد هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتت فاقرأ

عليها السلام من ربها وبشرها ببيت فى الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب »(١) .

وفي رواية ، أن جبريل قال : « يا مُحمد ، أقرىء خديجة من ربها السلام » ، فقال النبى ﷺ : « يا خديجة هذا جبريل يقرئك من ربك السلام » .

قالت خديجة : « الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » .

وعن يونس بن أبى إسحاق عن أبيه قال :

قالت فاطمة عليها السلام : « والله يا رسول الله لا ينفعنى عيشى حتى تسأل جبريل عن أُمى » ، فسأل فقال : « هى بين مريم وسارة فى الجنة » رضي الله عنهن(٢) .

وفي رواية البخارى ومسلم عن عبد الله بن جعفر قال :

سمعت عليا رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنتُ عمران »(٣) .

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خط رسول الله ﷺ ، أربعة خطوط وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال رسول الله ﷺ :

« أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ، ومريم ابنة عمران وامرأة فرعون » .

سلام الله على أمنا الكبرى ، السيدة خديجة أكمل النساء ، وخير نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنّة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) من قصب : أى فضة ويقال اللؤلؤ المجوف . لا صخب : فيه صمت وهدوء .

(٢) أخرجه ابن السدى .

(٣) رواه الترمذى .

الفصل الثاني

أفضل النساء ؛ البضعة المحمدية الطاهرة ،
البتول ، زهرة المصطفى ، وخير نساء العالمين ،
وسيدة نساء أهل الجنة :
السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها
زوج الإمام عليّ ، وأم الحَسن والحُسين سيدا شباب
أهل الجنة رضوان الله عليهم أجمعين

قال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (الأحزاب : ٣٣) . عاد النبى ﷺ فاطمة وهى مريضة فقال لها : كيف تجدينك ؟ قالت : إنى وجعة وإنه ليزيد فى حالى إذ لا أجد طعاما آكله . قال : يا بُنية ، أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ قالت : وأين مريم ؟ قال : " تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما ولقد زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة .

(رواه أبو العباس)

مولد الزهراء رضي الله عنها

أقبل العام العاشر من زواج الأمين ﷺ بالسيدة خديجة وهما يستعدان لاستقبال ثمرة حمل مبارك ، وكانت تلك الثمرة الطيبة ابنتهما فاطمة الزهراء التى شاء الله أن تكون من سلالتها الطاهرة ذرية رسوله الأكرم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الكرام البررة .

كان ذلك الميلاد السعيد قبل المبعث بسنوات خمس ، يوم الجمعة ، العشرين من جمادى الآخرة . وسماها النبى ﷺ بإلهام من الله تعالى « فاطمة » لأن الله فطمها عن النار . فقد روى الديلمى والحاكم عن على رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إنما سُمّيت فاطمة لأن الله فطمها وحجبها عن النار » .

وسُمّيت بالزهراء لأنها زهرة المصطفى ﷺ .

ولقّبت « بالبتول » لأن الله تعالى زادها عن النساء حُسناً وفضلاً وشرفاً . ولا نظيرلها فى ذلك بين نساء الأمة ، ولانقطاعها إلى الله سبحانه وتعالى .

وكُنّيت « بأم أبيها » كما رواه الطبرانى عن ابن المداينى . ولفاطمة رضي الله عنها تسعة أسماء : فاطمة ، والمباركة ، والزكية ، والصدّيقة ، والراضية ، والمرضية والمحدّثة ، والزهراء ، والطاهرة ، وكان يطلق عليها أم النبى أو أم أبيها كما تقدم .

ولم يكن اسم فاطمة غريباً عند العرب فقد كانت أم الإمام على فاطمة بنت أسد ، وهناك فاطمة بنت الحمزة أسد الله ، وفاطمة بنت عقبة .

ولقد بلغ من حب الرسول ﷺ لابنتـه فاطمة أنه كان يكنيها (بأم أبيها) .

فقد وُلد ، ﷺ يتيم الأب ، ولحقت والدته بوالده فعـاش مرارة اليتم ، فتعلّق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد زوجة عمه أبى طالب الذى كفله ورباه بعد موت جده عبد المطلب ، وكان يناديها :

يا أُماه ، وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسُمع وهو يقول : ماتت أمى ! ورُزق ﷺ « بفاطمة » ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد ، وتسلى بابنته عنها ولهذا كناها « أم أبيها » .

وكلما كان الإنسان من ذوى المنزلة والمكانة تعددت أسماؤه ، ويقول النحويون : إن الأسماء ثلاثة أنواع :

١ - اسم وهو : ما يسمى به الإنسان عند ولادته (فاطمة) .

٢ - ولقب وهو : ما يشعر بمدح أو ذم (الزهراء - البتول) وكلاهما مدح .

٣ - وكُنْية وهى : ما بُدئت بأب أو أم (أم أبيها) .

كان ذلك الميلاد السعيد قبل المبعث بخمس سنوات كما علمنا ، وكان بشير أمن وسلام للقرشيين جميعاً .. ذلك بأن قريشاً كانت تبنى الكعبة .. وقد قامت الخصومة بين القبائل وتنافسوا فى رفع الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب شعواء . ودام ذلك الخصام أربع ليال أو خمساً .. حتى قام فيهم أسنّ قريش يومئذ ، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومى فقال يهدىء نفوس الفروع المتخاصمة :

يا معشر قريش لا تختلفوا ، وليحكم بينكم أول قادم عليكم فقبلوا ذلك الاقتراح .

فى تلك اللحظة دخل عليهم الأمين محمد بن عبد الله الهاشمى فهتفوا جميعاً فرحين بمقدمه :

هذا الصادق الأمين رضينا بحكمه .

وعرضوا عليه الخلاف فهداه الله إلى الرأى الصائب الذى حسم الخلاف ، ومنع قيام الحرب .

خلع الأمين رداءه ، وفرشه على الأرض ، ثم وضع الحجر الشريف على ردائه وقال لزعماء القبائل :

ليحمل كل منكم طرفاً من هذا الرداء ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكان الحجر أخذه بيده الشريفة ووضعه فى موضعه . وكان الأمين محمد يومئذ فى سن الخامسة والثلاثين ، وعندما عاد الأمين من البيت الحرام إلى داره بُشر بمولد ابنته الطاهرة .

وقد نشأت الوليدة المباركة فى عطف من أبويها الكريمين وتدليل من أخواتها البنات الثلاث ... زينب الكبرى ورُقَيّة وأم كلثوم ، وخاصة كُبْراهن زينب التى احتضنتها معاونة لأمها الجليلة فى تربيتها .

ورأت السيدة خديجة فى وليدتها فاطمة الزهراء صورة من أبيها العظيم ، فسرّها ذلك الشبه ورأته بركة من بركات الله عليها ، وعلى آل البيت الكرام .

وشاء الله أن يموت شقيقاها القاسم وعبد الله طفلين قبل المبعث أو فى مستهله وكان الأمين قد ضم إليه ابن عمه على بن أبى طالب ليخفف عن كاهل عمه بعض النفقة إذ كان أبو طالب كثير العيال قليل المال .

وكان على بن أبى طالب يكبر فاطمة بنحو أربع سنوات فاتخذته أخاً ، وسرّها منه أنه أول من آمن من الصبيان ودلّ بمسارعته إلى الإسلام صغيراً دون الحُلُم على عقل راشد وقلب طاهر ثابت . وظهر ذلك جليا عندما سأله الرسول ، ﷺ عما إذا كان قد استشار أباه فى أمر دخوله الإسلام ؟

فأجاب ونور اليقين يملأ قلبه :

« إنى فكرت فى الأمر فوجدت أن الله حين خلقنى لم يستشر أبى ، فلماذا أستشيره فى أمر دينى الذى يربطنى بربى » .

وقال يتحدث عن نعمة ربه عليه بإسلامه وهو صبى لم يبلغ الحُلُم إذ كان فى سن العاشرة حين أسلم كما رواه ابن إسحاق ، قال رضي الله عنه :

سبقتكم إلى الإســـلام طرا — صغيراً ما بلغت أوان حُلمى

وصليت الصلاة وكنت فردا — فمن منكــــم له يوم كيومى

وقد تفتح قلب الزهراء الطاهر على نور الإسلام فما كادت تميز حتى رأت ذلك النور يُشرف على العالمين بادئاً بالعشيرة الأقربين ، حتى شملها وهى طفلة فى مدارج الصبا .

فها هو أبوها الأكرم ﷺ يصدع بأمر ربه حين نزل عليه قوله تعـالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (الشعراء : ٢١٤) . ويخص بالنداء زهرته الحبيبة إلى قلبه : « يا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أُغنى عنك من الله شيئاً » .

فهمست مستجيبة لندائه الصادق : لبيك يا أحب والد وأكرم داع .

وهى بذاتها فاطمة التى ذكرها ، ﷺ حين جاءه أُسامة بن زيد بن حارثة ليشفع فى امرأة من قريش كانت قد سرقت بعد أن أسلمت ، فغضب رسول الله ﷺ وسأله معاتباً : أتشفع فى حدٍّ من حدود الله يا أُسامة ؟!

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

وفى رواية : « لا تكلمنى يا أُسامة فإن الحدود إذا انتهت إلىّ فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها » .

ولهذا قيل « إن الحدود إذا انتهت إلى السلطان وجب إقامة الحد » .

وما سبق يدل على شدة تعلّقه ، ﷺ بابنته الحبيبة فاطمة .

زواجها بالإمام على

لما بلغت الزهراء ؓ ، سن الزواج خطبها أبو بكر وعمر فأحسن ، ﷺ ردهما وقال لكل منهما : أنتظر بها القضاء ، أو قال :

« إنها صغيرة » ، كما جاء فى سُنن النسائى .

وجاء فى أُسْد الغابة ، أنه لما خطبها أبو بكر وعمر وردهما رسول الله ﷺ ، رداً جميلاً ، قال عمر : أنت لها يا على .

فقال على : مالى من شيء إلا درعى أرهنها .

فزوجه رسول الله ﷺ فاطمة ، فلما بلغ ذلك الزهراء بكت فخشى المصطفى أن يكون بكاؤها أن علياً لا مال له .

فقال : « ما يبكيك ؟ ما ألومك فى نفسى وقد أحببت لكِ خير أهلى ، والذى نفسى بيده لقد زوجتك سيداً فى الدنيا وإنه فىَ الآخرة لمن المصلحين » .

وفى رواية أخرى قال لها : « يا فاطمة إن علياً يذكرك » وكان من عادته ﷺ أن يستشير كل بنت من بناته فى تزويجها كما جاء فى مسند الإمام أحمد فإن سكتت أمضى الزواج .

وكان ﷺ يقول فى زواج البكر « إذنها صمتها » .

ويعلق الأستاذ العقاد على بكاء السيدة الزهراء ، فيقول فى روعة ظاهرة : « فإذاكان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى ﷺ قد وجد الزهراء

باكية وليس فى ذلك غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يُبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها وقد فارقتها أُمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه ·

فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات ، وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين ، وأسى على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ·

ومثل النبى ﷺ الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم ، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ولن يسكت عنه إلا عامداً بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن ·

فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ، فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سِلماً » ·

وفى رواية أخرى أنه بعد دخول الرسول ﷺ بزوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فكر على كرم الله وجهه فى أن يخطب فاطمة رضي الله عنها ، لكنه لم يكن فى يده مال فأحجم عن مخاطبة أبيها ، ﷺ ، وزاد إحجامه حين بلغه أنه ﷺ ردّ كلا من أبى بكر وعمر فى رفق بالغ ·

ولكن أحباب على كرّم الله وجهه ألحوا عليه فى خطبتها ·

فأخذ طريقه إلى الرسول ﷺ ، حتى إذا جاءه حيّاه بتحية الإسلام ، ثم جلس قريباً منه على استحياء لا يذكر حاجته ·

وأدرك ﷺ أنه جاء لحاجة لا يجرؤ على الإفصاح عنها ، فتلطف معه ليفصح عنها وسأله : « ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » ·

أجاب بصوت خفيض وهو غاض البصر :

ذُكرت لي فاطمة بنت رسول الله ﷺ ·

فقال الرسول الأكرم : « مرحبا وأهلا » · ثم أمسك ﷺ لا يزيد ·

ولما رجع على كرم الله وجهه إلى أصحابه سألوه عما تم ·

فقال : ما أدرى والله شيئاً ، تحدثت إلى رسول الله ، ﷺ ، بالأمر ، فما زاد على قوله : « مرحبا وأهلا » ·

فهتفوا جميعاً يكفى من رسول الله إحداهما ·

وفى اليوم التالى وقف غير بعيد من رسول الله ﷺ وقال بحيث يسمعه: أردت أن أخطب إلى رسول الله ابنته ، فقلت والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه ·

فما راعه إلا أن التفت إليه ﷺ مترفقاً : « وهل عندك شىء ؟ » ·

أجاب : لا يا رسول الله ·

لكن الرسول ﷺ ، ذكر أن علياً أصاب درعاً من مغانم بدر ، فعاد يسأله : « أين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ » ·

أجاب وقد غلبه التأثر لما لقيه من بره ﷺ ورعايته : هى عندى يا رسول الله ·

قال عليه الصلاة والسلام : « فأعطها إياه » ·

فانطلق علىّ مسرعاً وجاء بالدرع ، فأمره ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها وتقدم عثمان بن عفان فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهماً حملها علىّ ووضعها أمام الرسول ﷺ ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى بلال ليشترى ببعضها طيباً وعطراً ، ثم يدفع الباقى إلى زوجته أم سلمة لتشترى جهاز العروس ·

وجُهِّزت العروس وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ، ووسادة من أدم(١) حشوها ليف ، وإناء يُغسل فيه ، وسقاء ، ومنخل ، ومنشفة ، وقدح ، ورحوين ، وجرين ·

* * *

---

(١) أدم : جِلد ·

الإمام عليّ

اجتمع للإمام على ﷺ من صفات الكمال ومحمود الشمائل والخصال وثناء الحسب ، وباذخ الشرف ، مع الفطرة النقية والنفس المرضية ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال[1] .

تحدّر من أكرم المناسب وانتهى إلى أطيب الأعراق ، فأبوه أبو طالب : عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب : أمير مكة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم .

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ : ملح الأرض وزينة الدنيا ، وحُلى العـالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولبات كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

واختص بقرابته القريبة من رسول الله ﷺ فكان ابن عمه وزوج ابنته ، وأحب عترته إليه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه .

أسلم على يديه صبيا ، قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أو يخالط عقله شوْب من شرك موروث ، ولازمه فتيا يافعاً فى غدوه ورواحه ، وسلمه وحربه ، حتى تخلّق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، وفقه عنه الدين وثقف ما نزل به الروح الأمين ، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم ، وأحفظهم وأوعاهم ، وأدقهم فى الفتيا ، وأقربهم إلى الصواب حتى قال فيه عمر :

لولا عليّ لهلك عمر . كما قال له : لا أبقانى الله فى بلد لست بها يا أبا الحسن .

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور . فعلى عهد الرسول ﷺ ناضل المشركين واليهود ، فكان فارس الحلبة ومسعر الميدان ، صلب النبع ، جميع الفؤاد .

(١) نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ، لقى فيها ما لقى من تفرق الكلمة ، واختلاف الجماعة ، وانفصام العروة ، ما طوى أضلاعه على الهم والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشجن ·

وفى كل ما لقى من أحداث وأمور ، وما صادف من محن وخطوب ، بلى الناس وخبرهم ، وتفطن لغرهم ومخبرهم ، واستشفّ ما وراء مظاهرهم فكان العالِم المجرّب الحكيم ، والناقد الصيرفى البصير ·

وكان لطيف الحس ، نقى الجوهر ، وضاء النفس ، سليم الذوق ، مستقيم الرأى ، حسن الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ، عارفاً بمهمات الأمور إصداراً وإيراداً ·

بل كان كما وصفه الحسن البصرى : سهماً صائباً من مرامى الله على عدوه وربانى هذه الأمة ، وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ ، لم يكن بالنئومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه ، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام مشرقة ، ذاك علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه » ·

كان إمامنا على أصغر إخوته ، وأكبر منه جعفر وعُقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين ، ولما أصاب القحط قريشاً ، أهاب رسول الله ﷺ ، بعميه حمزة والعباس أن يخففوا عن عمه أبى طالب عبء المعيشة ، فأخذ النبى ﷺ عليّا ، وأخذ العباس طالباً ، وأخذ حمزة جعفراً ، وبقى عُقيل فى كنف أبيه ·

وفضائل الإمام على كرم الله وجهه فى الإسلام أشهر من أن تُذكر ·

شكوه مرة إلى رسول الله ﷺ فقام خطيباً وقال :

« أيها الناس لا تشكوا عليّا ، فوالله إنه لجيش من ذات الله » · وحين آخى الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قال للإمام على : « أنت أخى » ·

وحين خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك خلف الإمام على فى أهل

بيته بالمدينة ، فبكى كرّم الله وجهه وقال : يا رسول الله تخلفنى على النساء والصبيان !

وكان كرّم الله وجهه يود أن يقاتل معه أعداء الله .

فطيب الرسول . ﷺ ، خاطره وقال له : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

وقد سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها : أى الناس أحب إلى رسول الله ﷺ ؟

قالت : فاطمة .

فقيل : من الرجال ؟

قالت : زوجها ، كان كما علمت صوّاماً قواماً .

وفى غزوة خيبر قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله » ، فتاقت نفس عمر إلى ذلك حتى إنه رضي الله عنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم .

فقال النبى ﷺ : « ادعوا لى علياً » .

فأتاه وبه رمد ، فوضع ﷺ ريقه على عينيه فشُفيتا ، ودفع الراية إليه ففتح الله عليه .

وكانت له ، كرّم الله وجهه فى خيبر كرامة كبيرة فقد استعصى على المسلمين آخر حصن ، فاشتد القتال حتى كسروا للإمام دُرْقته ، فخلع باب الحصن وترّس به عن نفسه ، وقاتل حتى فتح الله الحصن على يديه ، فاجتمع عشرة وقيل أربعون ، ليرفعوا باب الحصن فثقل عليهم فسألوه : كيف حمله هو بيد وقاتل باليد الثانية ؟

فابتسم كرّم الله وجهه وقال : إنما هو عون الله ومدده .

وروى صاحب الأمالى : أن علياً جلس فى المسجد إلى عمر رضي الله عنه وعنده ناس ، فلما قام عرّض واحد بذكره ونسبه إلى التيه والعُجْب ، فقال عُمر :

حق لمثله أن يتيه ، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام ، وهو أقضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها .

وكان عمر ﷺ ، وهو أمير المؤمنين ، يعتد ويعتز بفتوى الإمام على .

وكان ابن عباس ﷺ يأخذ العلم عن الإمام على وعُرِفَ ابن عباس بتبحره فى العلم حتى سُمى البحر ، كما سُمى حبر الأمة ، وترجمان القرآن .

ولما سُئل ابن عباس : ما علمك إلى علم ابن عمك ؟

قال : كقطرة إلى جانب البحر المحيط .

كما قال : لقد أُعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم وايم الله لقد شارككم فى العُشر العاشر .

وقد دعا له رسول الله ، ﷺ أن يرزقه الله الفهم ، فكان ﷺ غزير العلم ، عظيم الفهم كما تقدم ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة جداً نذكر منها واحدة يرويها لنا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قال : ترك الإمام على ابن أبى طالب ، كرّم الله وجهه تسع كلمات قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن : ثلاث فى المناجاة ، وثلاث فى العلم ، وثلاث فى الأدب :

فأما التى فى المناجاة فهى قوله : كفانى عزاً أن تكون لى رباً . وكفى بى فخراً أن أكون لك عبداً . أنت لى كما أحب ، فوفقنى لما تحب .

وأما التى فى العلم فهى قوله : المرء مخبوء تحت لسانه . تكلموا تُعرفوا . ما ضاع امرؤ عرف قدره .

وأما التى فى الأدب فهى قوله : أنعم على من شئت تكن أميره . واستغن عمن شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

وقد اجتمع للإمام على وبنيه السبطين الحَسن والحُسين كل صفات المجد فى بنى هاشم إلى جانب القوة الجسدية ولا تنس أن الرسول ﷺ قال :

« لو ولد الناسَ كلهم أبو طالب لكانوا شجعانا » .

وإلى جانب الصفات المتقدمة ، خص الله إمامنا علىّ بنفح إلهى ، وإلهام

ربانى ، فتفجرت عيون العلم والحكمة من قلبه وجرت على لسانه فى بلاغة تلى بلاغة الرسول ﷺ ·

حفل الزواج

قيل إن عقد الزواج تمّ فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة · وكان عُمْر فاطمة إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وقيل ست عشرة ، وقيل ثمانى عشرة سنة ، وتزوجها علىّ وسنّه إحدى وعشرون سنة ·

وأخرج الخطيب البغدادى فى كتابه التلخيص عن أنس قال : بينما أنا عند النبى ﷺ إذ غشيه الوحى · فلما سُرّى عنه قال لى : أتدرى ما جاء به جبريل من عند صاحب العرش ، إن الله أمرنى أن أزوّج فاطمة من علىّ ، انطلق فادعُ لى أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وعدة من الأنـصار ·

قال أنس : فانطلقت ، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع سلطانه ، النافذ أمره فى سمائه وأرضه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، ونوّرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ ·

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراً مُفترضاً ، وحكماً عادلاً ، وخيراً جامعاً ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام · فقال عز وجل : ﴿ وهو الذى خلق من المــاء بشراً فجعله نسبــاً وصهراً وكان ربــك قديراً ﴾ (الفرقان : ٥٤) · « لكل أجل كتاب · يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (الرعد : ٣٩) ·

ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوّج فاطمة من علىّ وأُشهدكم أنى زوّجت فاطمة من علىّ على أربعمائة مثقال إن رضى بذلك على السُنّة القائمة ، والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » ·

قال أنس : وكان علىّ رضي الله عنه غائباً فى حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه

فيها ، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر ، فوُضِع بين أيدينا ، فقال : « انتهبوا » .
فبينما نحن كذلك إذ أقبل عليّ ، فتبسّم إليه رسول الله ﷺ وقال : « يا عليّ إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة وإنى زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة » .

فقال عليّ : رضيت يا رسول الله ، ثم إن علياً خرّ ساجداً شكراً لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول ، ﷺ : « بارك الله لكما وعليكما وجمع شملكما وأخرج منكما الكثير الطيب » .

قال أنس : والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب ، وفى رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، أن علياً أتى النبى ، ﷺ فسأل عن موعد الزفاف فقال : « الليلة إن شاء الله » ، ثم دعا ثلاثاً ، فقال :

« زوجت ابنتى ابن عمى » ، ثم قال : « وأنا أُحب أن يكون سُنّة أُمتى الطعام عند النكاح . فخذ شاة وأربعة أمداد ، واجعل قصعة[1] . اجمع عليها المهاجرين والأنصار ،فإذا فرغت فأتنى » . ففعل ، ثم أتاه فوضعها بين يديه وبارك[2] ، وقال ﷺ : « أدخل الناس رفة[3] بعد رفة » ، فجعلوا يردون كلما فرغت رِفة وردت أخرى حتى فرغوا من الطعام ، ثم بقى عند رسول الله ﷺ إلى ما فضل منها ، فوضعها بين يديه وبارك ، وقال : « احملها إلى أمهاتك[4] وقل لهن : كلن وأطعمن من غشيكن » ، ثم قام ﷺ ، فدخل على النساء فقال : « زوجت ابنتى ابن عمى ، وقد علمتن منزلتها منى ، وأنا دافعها إليه فدونكن » . فقمن فطيبنها من طيبهن ، وألبسنها من ثيابهن وحُليهن .

ثم إن النساء ذهبن ، وتخلفت أسماء بنت عُميس زوجة أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

---

(١) قصعة : مائدة .

(٢) بارك : أى قال ، اللهم بارك فيها .

(٣) رفة : جماعة قليلة .

(٤) أمهاتك : يقصد أمهات المؤمنين ، أزواج النبى ﷺ .

فقال ، ﷺ « على رِسْلِك من أنت ؟ » .

قالت : أنا التى أحرس ابنتك ؛ إن الفتاة ليلة زفافها لا بد لها من امرأة قريبة منها إن عرضت لها حاجة ، أو أرادت أمراً أفضت إليها به .

قال : « فإنى أسأل الله أن يحرسكِ من بين يديك ومن خلفكِ ، وعن يمينك وشمالك من الشيطان الرجيم » . ثم خرج بفاطمة .

وتكمل أم أيمن رواية زفاف كريمة المصطفى ﷺ ، فتقول ، إن النبى ﷺ قال لعلىّ : « إذا أتيت بها فلا تقربها حتى آتيك » .

فلما أتى بها قعدا جنباً فى ناحية البيت[1] ، وكان الرسول عليه السلام قد ذهب لصلاة العشاء ، فلما فرغ من الصلاة ، جاء رسول الله ، ﷺ فدعا بإناء فيه ماء فأتى به ، فوضع يده فيه وقرأ بعض آى الذكر الحكيم[2] ، ثم دعا علياً فنضح من ذلك الماء على كتفيه وصدره وذراعيه ، ثم دعا فاطمة فأقبلت تتعثر فى ثوبها حياء من رسول الله ففعل بها مثل ذلك .

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما يليق به ، وجاء حمزة بن عبد المطلب بشارفين فنحرهما وأطعم الناس بالمدينة ، ولما تم الحفل انصرف القوم مهنئين .

المسكن الجديد وعيشة الكفاف

« انتظمت الحياة فى المسكن الجديد الذى أوى إلى ظل النبى ﷺ ، على مثال من حياة النبى ﷺ فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته إذ كان رزق علىّ من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلاً فى حياة النبى ﷺ ، وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم وكلما رُزق وليداً جاءته حصته على قدر شأن كل أب من المسلمين[3] »

---

(١) أى جلسا متجاورين .

(٢) يستحب قراءة قل هو الله أحد والمعوذتين .

(٣) فاطمة الزهراء للعقاد .

ولقد زار الرسول ﷺ ابنته الزهراء يوماً ، وفوجدها تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال : « تجرّعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » ٠

وهذه لا ريب تربية عالية ، وقد ربّى الله تعالى بها أمهات المؤمنين ؛ نساء النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ٠ وإن كنتن تُردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ ٠

(الأحزاب : ٢٩) ٠

وقد اخترن رضي الله عنهن الصبر ، أسوة بصبره ﷺ على تلك المعيشة ٠

ويعلق الأستاذ العقاد رحمه الله على تخييره ﷺ لزوجاته بين الصبر على عيشة الكفاف والتسريح لينعمن بالحياة الدنيا فيقول فى روعة ظاهرة :

« الله أكبر » ، مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسداً ، ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق ، فذلك هو الإعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه ويُعيد بلوغ هاتيك جداً ، وتلك عليا مراتب الأنبياء ٠ إن محمداً يبكى لأنه يرى أحب الناس إليه وأقربهم منه جائعة مرهقة (يقصد السيدة الزهراء رضي الله عنها) ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية ، ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : ما برهان النبوة عند مُحمد ؟ الله أكبر ، إن لم يكن هذا برهان النبوة ، فبرهان أى شىء يكون ؟! »

ولذلك قال العارفون بالله : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك ٠

وإلى هذا يشير الإمام البوصيرى فى بردته المباركة فيقول :

وشد من سغب[1] أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحا[2] مُترف الأدم[3]

---

(١) السغب : الجوع ٠
(٣) الكشح : البطن ٠
(٣) الأدم : الجلد ٠

وراودته الجبال الشمُّ من ذهب عنت نفسه فأراها أيّما شمم

وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

وقد اختلفت حياة السيدة الزهراء عن حياة أخواتها الثلاث ، اللواتى أتيحت لهن عيشة الثراء ، فإن السيدة زينب رضي الله عنها كانت متزوجة من العاص بن الربيع ، وكان تاجراً ذا مال فعاشت فى سعة ، أما السيدتان رقية وأم كلثوم فكانتا فى بيت أبى لهب مع ابنيه عُتبة وعُتيبة ، وكان أبو لهب ذا مال .

وعندما فارقا زوجيهما ، تزوجتا واحدة بعد الأخرى من عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء فعاشتا فى بسطة من العيش .

وقد احتملت السيدة الزهراء مع زوجها الإمام على عيشة الشظف ، فكانت تخدم بيتها بيدها ، وجاء فى وصف العبء الذى وقع عليها فى تلك الخدمة : أنها جرّت بالرحَى حتى أثّرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثّرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبّرت ملابسها .

ومع عيشة الكفاف التى صبرت عليها السيدة الزهراء ، فإنها كانت كريمة تجود بما عندها ، وتؤثر المحتاجين على نفسها ، ابتغاء مرضاة الله حتى نزل فيها وفى زوجها قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ (الإنسان : من ٧ - ٩) نزل بها الأمين جبريل عليه السلام وقال : خذها يا مُحمد هنأك الله فى أهل بيتك .

الزهراء فى الحياة العامة

قلنا إن مولد السيدة الزهراء كان قبل البعثة بخمس سنوات ، وقد شاركت أسرتها فى الحصار فى شِعْب أبى طالب ، ذلك الحصار الجائر الذى دام ثلاث سنوات كما هاجرت مع أختها أم كلثوم إلى المدينة المنورة حين أرسل إليها أبوهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة .

وقد صحبت أباها ، صلى الله عليه وسلم فى غزوة أُحُد ، ورؤيت هناك بين الجرحى

تضمد جراحهم ، وتقوم على خدمتهم وتسقى الشهداء وهم يحتضرون لا تبغى بذلك إلا رضاء الله ورسوله .

وقد شهدت السيدة الزهراء فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، حين سيّر أبوها ، ﷺ ، جيشاً من عشرة آلاف مقاتل ليأخذ بحقه من أهلها الظالمين الذين أكرهوه وأصحابه على الهجرة منها ، ونقضوا صلح الحديبية .

وعسكر الجيش النبوى الظافر فى « مرّ الظهران » انتظاراً للمعركة الفاصلة ، فإذا بقائد المشركين أبو سفيان بن حرب يسعى إلى رسول الله ، ﷺ ، ويلقى السلم ويؤمن بالدعوة المحمدية ، وكانت الراية مع سعد بن عبادة الأنصارى فقال رسول الله ﷺ للإمام على : « أدركه ، فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها » .

وصدر فى فتح مكة الأمر النبوى للصحابة الفاتحين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم واستثنى من هذا الأمر نفراً سماهم بأسمائهم وفيهم الحويرث بن منقذ الذى نخس راحلة الزهراء وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ، وشاء الله أن يقتله زوجها على بن أبى طالب ليكون أخْذ ثأرها على يده لا على يد غيره ، فذلك أدخل لسرورها ، وقد سجد رسول الله ﷺ ، شكراً لله على قتل ذلك النذل .

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ (الإسراء : ٨١) .

وتوارت منه الخفافيش فى ليل الكفر ، حتى فضح الصبح فحمة الدُّجى ، وبهرت الشمس مواطن الظلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

وقد لحظ الإمام على كرّم الله وجهه . أن زوجته الزهراء لم تنم ليلتها بل ظلت ساهرة يقظى تنتشى فرحاً بفتح مكة ، فقال وهو يتهيأ لصلاة الصبح فى البيت العتيق بعد أن طهره رسول الله ، ﷺ من الأوثان التى كانت حوله أما نِمتِ يا أُمَّ الحسن ؟

أجابته وهى فرحة بالنصر :

بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة ، وأنا كاملة اليقظة ، وكأنى أشفق إذا نمت أن يكون الأمر كله حُلماً فى الكرى ·

ثم قامت تصلى ثم نامت بعد سهر طويل ·

ودام مقام السيدة الزهراء ، بمكة المكرمة شهرين وبعض الشهر وزارت قبر أمها خديجة الكبرى ·

وزاد فى سرور الزهراء أن تسمع بأذنيها ضجيج آلاف من المسلمين الفاتحين وهم يهتفون :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلاّ الله وحـده ، صـدق وعـده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ·

ثم آوى الرسول ، ﷺ إلى قبته حيث كانت تنتظره ابنته الزهراء ، واستراح قليلاً ثم جاء إلى البيت الحرام وسط الجموع الزاحفة فطاف به سبعاً على راحلته ، فلما قضى طوافه فُتحت له الكعبة ثم وقف على بابها ، فخطب فى الناس خطبة الفتح ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » ·

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ·

قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ·

يا للسماحة ، ويا للخلق العظيم ، عفوٌ عند المقدرة ، على أعدائه الآثمين الفجرة ، الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم بغير ذنب إلا أن يقول ربنا الله ·

أما عن العطف الذى حبا به الرسول الأكرم ﷺ ، السيدة الزهراء وزوجها ، فحدّث ولا حرج فقد كان يزورهما عند صلاة الصبح ، كل يوم وبالباب يقول :« السلام عليكم أهل البيت » ويقول : « الصلاة ثلاث مرات » ﴿إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (الأحزاب : ٣٣) ·وكان ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة رضي الله عنها ، ثم يأتى بيوت نسائه ·

أبناء الزهراء آل البيت الكرام

رزق الله السيدة الزهراء وزوجها أطيب ذرية من الذكور والإناث ، وذلك ببركة دعائه ، ﷺ لهما . أما الذكور فهما السبطان : الحسن ، والحسين ، ثم المُحسن وقد مات المُحسن صغيراً ، وحفظ الله السبطين رضي الله عنهما ، حتى قاما بدورهما في تاريخ الإسـلام وصان سبحانه نسل رسول الله ، ﷺ في الحياة ، وأما الإناث : فزينب وأم كلثوم .

وأسماء الحَسن ، والحُسين ، والمحسن من اختياره ، ﷺ .

أما زينب(١) وأم كلثوم(٢) فسُمّيتا باسم خالتيهما إحياء لذكرى الراحلتين العزيزتين اللتين فقدتهما الزهراء رضي الله عنهم أجمعين ، دون أن تنسى عطفهما عليها حين كانت طفلة في مدارج الصبا وكان ﷺ يغمر سبطيه الحسن والحسين بعطفه الكبير وقال فيهما : « إنهما ابناى وابنا بنتى ، اللهم إنى أُحبهما وأحب من يحبهما » .

ولذلك كان كل منهما يهتف بجده ، ﷺ ويقول : يا أبت ، وإذا هتف الحسن بأبيه علىّ قال : يا أبا الحُسين ، وإذا هتف الحُسين بأبيه علىّ قال : يا أبا الحسن . ولما انتقل جدهما ، ﷺ ، إلى الرفيق الأعلى كانا يهتفان بأبيهما علىّ : يا أبت .

وكانت السيدة الزهراء تهتف بابنيها فتقول مرة : يا حسنان ، ومرة أخرى : يا حُسينان من باب المزج بين اسميهما .

وكان الطفل منهما يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر رسول الله ، ﷺ فيرقصه جده .

وقد يلفهما فى بُرْد واحد ويقول : « أنا وأنتما يوم القيامة فى مكان واحد » .

ورُوى عنه ﷺ أنه قال عن الحسن والحسين : « إنهما سيدا شباب

---

(١) زينب : تزوجت من ابن عمها عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم .

(٢) أم كلثوم : تزوجت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما تأيمت بعد وفاته تزوجت من ابن عمها عون بن جعفر رضي الله عنهم .

أهل الجنة وكان الإمام عليّ يضن بهما فى الحرب ويقول : إنى أخشى أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله ﷺ .

أما الصحابة الكرام فقد أجلّوا الحسن والحسين كل الإجلال حتى كانوا يقولون لكل منهما : يا ابن المصطفى .

ومن هنا يتبين لنا أن أهل البيت المنسوبون للرسول الأكرم ﷺ هم : السيدة فاطمة الزهراء ، كريمة المصطفى ﷺ ، وزوجها الإمام على ، وولديه من الزهراء السبطين الحسن والحسين ومن ذريتهما كان نسله الشريف ﷺ : « إنما هما ابناى ، وابنا ابنتى » وشرف ذرية السبطين ، الحسن والحسين عليهما السلام عام لا فرق فيه بين أولاد ذكورهما أو أولاد إناثهما ، لأبوة النبى ﷺ كتاباً وسنّة وإجماعاً .

جاء فى مطالب السُّول فى مناقب آل الرسول لمحمد بن طلحة قال : كان الشِعبى يميل إلى آل النبى ﷺ ، ولا يذكرهم إلا وهو يقول : هم أبناء رسول الله ﷺ وذريته .

فنُقِل ذلك عنه إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، فلما تكرر ذلك منه ، غضب علَى الشعبى ونقم عليه .

فاستدعاه الحجاج يوماً ، وقد اجتمع لديه أعيان المِصرين (الكوفة والبصرة) وعلماؤها ، وقراؤها ، فلما دخل الشعبى لم يهش له ، ولم يحسن استقباله فلما جلس قال يا شعبى : ما أمر بلغنى عنك فيشهد عليك بجهلك ؟

قال : ما هو يا أمير ؟

قال الحجاج : ألم تعلم أن أبناء الرجل إنما يُنسبون إليه ؟ والأنساب لا تكون إلا بالآباء ، فلما بالك تقرل عن أبناء عليّ أنهم أبناء رسول الله ﷺ وذريته ، وهل لهم اتصال برسول الله ﷺ إلا بأمهم فاطمة ، والنسب لا يكون بالبنات ، وإنما يكون بالأبناء .

فأطرق الشعبى ساعة حتى بالغ الحجاج فى الإنكار عليه ، ووقع إنكاره فى مسامعه والشعبى ساكت . . .

فقال : يا أمير ، ما أراك تكلمنا إلا بكلام من يجهل كلام الله وسُنّة نبيّه ﷺ أو يُعرِض عنهما .

فازداد الحجاج غضباً وقال : ألمثلي تقول هذا ، يا ويلك ؟!

قال : نعم ، هؤلاء هم قراء المِصْرَين ، حملة الكتاب العزيز ، أليس قد قال الله تعالى : (يا بنى آدم) ، (يا بنى إسرائيل) ، وعن ابرهيم (ومن ذريته عيسى) وهل كان اتصال عيسى بالثلاثة إلا بأمه ، وقد صح النقل عن رسول الله ﷺ : « هذا بنى سيد شباب أهل الجنة » .

فخجل الحجاج ، وعاد يتلطف للشعبى .

وروى أبو بكر الصديق ﷺ قال : رأيت رسول الله ، ﷺ خيّم خيمة وهو متكىء على قوس عربية ، وفى الخيمة : علىّ وفاطمة ، والحسن والحسين فقال :

« معشر المسلمين ، أنا سِلْم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولى من والاهم . لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب الولد ، ولا يبغضهم إلا شقى الجدّ ردىء الولادة » .

ولا تنس أن الله تعالى شرفهم بالطهارة فقال : « إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فاستعارت الآية للمعاصى الرجس ، وللطاعات الطهارة ، فهم موفقون للطاعات ، مُنتهون عن المعاصى ، وكيف لا وقد سبقت لهم من الله الحُسنى وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليماً .

ولا يخفاك أن الله جعل لهم لسان صدق فى الآخرين فهم مذكورون على ألسنتنا ، وعلى مر الزمان فى كل تشهُّد نتلوه فى صلاة الفرض أو فى النفل ونقول فيه : اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ... إلخ .

وروى البخارى عن أبى بكر الصديق ﷺ ، قال : « ارقبوا مُحمد ﷺ فى أهل بيته » .

وعنه ﷺ قال : « والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى » رواه أحمد والترمذى وصححه والنسائى والحاكم عن المطلب ابن ربيعة ﷺ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم والطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس ﷺ : لما نزلت هذه الآية الكريمة « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُربى » قالوا يا رسول الله :

من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟

قال ﷺ « علىّ وفاطمة وولدهما » .

مرض النبى ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

وبعد العودة إلى المدينة بعامين أو قليل ، مرض النبى ﷺ فى أُخريات صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة .

فأقامت السيدة الزهراء إلى جانب أبيها براً وحناناً ، كانت بداية مرضه ﷺ فى بيت أم المؤمنين ميمونة ، أحس وجعاً فى رأسه ، ولما اشتد عليه الوجع استأذن نساءه أن يمرّض فى بيت السيدة عائشة حتى لا يتحمل مشقة الانتقال إلى كل زوجة فى دورها وهو مريض ، فرضوا جميعاً ، رضوان الله عليهن ، أن يُمرّض رسول الله حيث يُحب .

وقد رأته الزهراء ، وهو يأخذ الماء بيده وبضعه على رأسه (من شدة الحمَّى) ويقول : « واكرباه » فخنقت العبرات أم أبيها وقالت وهى محزونة : واكرب أبتاه .

فرد عليهما فى عطفه المعتاد ، وحنانه الأبوى الخالص :

« ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

ثم قبّلها وأجلسها إلى يمينه ، وأسرّ إليها أنه قد حان أجله ، فبكت ، ثم أسرَّ إليها أنها ستكون أول أهله لحوقاً به ، وأضاف عليه السلام : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ! » .

فسرّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء .

فلما مضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى قالت : « وابتاه ، أجاب ربًا دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه » .

قال الإمام ابن كثير : لا يُعد ما قالته نياحة من المنهى عنها ، بل هو من باب ذكر فضائله الحقة عليه الصلاة والسلام .

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يعزى السيدة الزهراء :

أفاطم إن جزعت فذاك عذر   وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر   وفيه سيد النـاس الرسول

فجمعت السيدة الزهراء كيانها المتصدع لهول ذلك المصاب الكبير ، وسعت إلى قبر الحبيب ﷺ ، فقبضت قبضة من تراب القبر الشريف ، وأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء ، ثم راحت تشمها وتقول فى لوعة وحزن عميق :

ماذا علىّ من شم تُربة أحمد   ألا يشمّ مدى الزمـان غواليا

صُبّت علىّ مصائب لو أنهـا   صُبَّت على الأيام عُدْن لياليا

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، ثم عادت إلى دارها ، فاستأذن عليها أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، وراح يسألها الصبر الجميل .

فقالت : يا أنس ! أطابت أنفسكم أن دفنتم رسول الله ﷺ فى التراب ورجعتم ؟(١)

وفى رواية : يا أنس : أطابت أنفسكم أن تحثوا (٢) على رسول الله ﷺ وسلم التراب ؟

فشهق أنس وذرفت عيناه الدموع وترك الكلام فى الصبر والعزاء . قال حماد فكان ثابت إذا حدّث بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه .

وأخرج ابن سعد عن أبى جعفر ﵁ قال : ما رأيت فاطمة ﵂ ضاحكة بعد رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) تحثوا : تصبوا .

موت الزهراء رضى الله عنها

وما أسرع ما تحقق قوله ﷺ ، فقد بشرها بأنها أول أهل بيته لحوقاً به ، ولا خير فى عيشها من بعده وقد مكثت بعد أبيها ستة أشهر وهى تذوب .

وما أصبحت يوم الاثنين الثانى من رمضان سنة إحدى عشرة ، إلا وقد عانقت أهلها ، وملأت عينيها منهم ، ثم دعت إليها أم رافع مولاة أبيها ﷺ فقالت لها بصوت خفيض : يا أمة اسكبى لى غُسْلا .

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثياباً لها جدداً كانت قد نبذتها حداداً ، ثم قالت : قد اغتسلت فلا يكشف لى أحد كنفا .

وقيل : غسّلها زوجها أو أسماء بنت عميس كما جاء فى بعض الروايات . ونتابع الرواية الأولى :

ثم قالت الزهراء لأم رافع : اجعلى فراشى فى وسط البيت ، فلما فعلت اضطجعت عليه السيدة الزهراء ، واستقبلت القبلة ، وتهيأت للقاء ربها ، لتلحق بأبيها ﷺ فى دار النعيم ، وتبسمت ولم تُر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها ، ثم أغمضت عينيها وأسلمت روحها لبارئها ، وصلّى عليها علىّ ودفنها ليلاً بوصية منها فى البقيع ، فى محراب فيه ولدها المحسن تحت محرابها أمهات المؤمنين أزواج النبى عليه الصلاة والسلام .

وهى أول من غُطى نعشها فى الإسلام ؛ روى ابن سعد عن أم جعفر أن فاطمة قالت لأسماء بنت عُميس : إنى استقبح ما يُصنع بالنساء ، ويُطرح على المرأة الثوب فيصفها .

فقالت : ألا أُريك شيئاً رأيته بالحبشة .

فدعت بجريدة رطبة فحسيتها ، ثم طرحت عليها ثوباً .

فقالت فاطمة : ما أحسن هذا ، إذا أنا مت فغسّلينى أنت وعلى ولا يدخلنّ أحد علينا ، ثم اصنعى بى هكذا فلما توفيت صُنع بها ما أمرت به .

عاد الإمام على إلى صغاره محزوناً بعد أن ودع أعز الأحباب وسيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة ، فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وقد أوحشت بموتها

الدار التى كانت نورها وجمالها ، وقد أحزن المسلمين أن يشيعوا إلى القبر رابع بنات الرسول ﷺ ولما تمض على وفاته ﷺ سته أشهر وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وقال إمامنا علىّ رضي الله عنه يعزى نفسه :

وإن افتقادى فاطماً بعد أحمد دليل على ألا يدوم خليل

والتفت إلى قبر الحبيب محمد ﷺ ، وقد خنقته العبرات ، فقال وهو يبكى : « السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قَلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقّ عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فُرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعز » .

ويقول الأستاذ العقاد تعقيباً على وفاتها رضي الله عنها : « فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى » .

« فإذا تقدست فى المسيحية مريم العذراء ، ففى الإسلام ، لا جرم ، أن تتقدس صورة فاطمة البتول » .

فضائل الزهراء رضى الله عنها

ونعود إلى السيدة الزهراء فنقول : إن الصحاح روت عن ابن جريج قال ، قال لى غير واحد : كانت فاطمة صُغرى بنات النبى ﷺ وأحبهن إليه .

كذلك سمعوه ، ﷺ يقول لابنته فاطمة : « إن الله ليرضى لرضاك ، ويغضب لغضبك » .

وأخرج الحاكم والذهبى عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذى ولَدها » وصح أن النبى ﷺ جلل فاطمة وزوجها وابنيهما بكساء ، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى ، اللهم فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً »[١] . وقد جمع الأستاذ العقاد فضائل السيدة الزهراء ، فى كتابه القيم فاطمة الزهراء فقال رحمه الله :

---

(١) رواه مسلم والحاكم وأحمد والترمذى والطبرى فى تفسيره وكذا ابن كثير .

« . . . فى خلائق السيدة فاطمة الزهراء مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه . . .

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات إرادة لا تُهمل فى حساب شأن من شؤونها . وكانت فطرة التديّن وراثة من أبوين .

. . . ولا ننسى أن الزهراء قد غودرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فإذا ظهر منها هذا الجد ، وهذا اليقين ، وهذه العزة ، وهذه الإرادة ، وهى فى تلك السن الباكرة ، فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسّر المفسّرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين » .

وقد روت عن أبيها ﷺ الحديث ، وروى عنها ابنها الحسين ، وأمهات المؤمنين :عائشة وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وغيرهم .

تكريم الله عز وجل للسيدة فاطمة الزهراء وزوجها الإمام على وبنيها السبطين الحسن والحسين

أما فى القرآن الكريم ، فقد جعل الله تكريم السيدة الزهراء وزوجها وبنيها فى آيات تُتلى فى كتابه الكريم ويتعبد بها المؤمنون فى كل زمان ومكان .

وكان ذلك فى ثلاثة مواضع من سور الكتاب العزيز ، أما الأول فهو فى سورة الإنسان ، قوله تعالى : ﴿ ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنَّا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذُللت قطوفها تذليلاً . ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً . قواريراً من فضة قدروها تقديراً . ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تُسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مُخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ومُلكاً كبيراً . عاليهم ثيابُ سندس خضر وإستبرق وحُلّوا أساور

من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

نزل بها الأمين جبريل على النبى محمد ﷺ مُبشراً وقال : « خذها يا مُحمد ، هنيئاً لك فى أهل بيتك » .

والموضع الثانى من آى الذكر الحكيم فى سورة الأحزاب قال الله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

والموضع الثالث فى سورة الشورى قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُربى ومن يقترف حسنةً نَزِدْ له فيها حُسناً إن الله غفور شكور » .

وأما فى السُّنة النبوية الشريفة فقد روى الحاكم والذهبى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ، وآسية » .

وصحح الترمذى هذا الحديث : « حسبك من نساء العالمين : مريم ، وخديجة ، وآسية بنت مزاحم ، وفاطمة بنت محمد ﷺ » .

وروى الحاكم عن حذيفة قال ، قال النبى ﷺ : « نزل ملك فبشرنى أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

وقد تقدم أنها سيدة نساء العالمين ، وأنها سيدة نساء هذه الأمة .

سلام الله على أفضل نساء العالمين ، وسيدة نساء أهل الجنة ، البضعة المحمدية السيدة فاطمة الزهراء ، والسلام من الله على ابنيها السبطين الكريمين الطيبين الطاهرين ؛ سيدا شباب أهل الجنة ؛ الحسن والحسين ، ثم السلام من الله على الإمام الرضىٍّ المرضى زوجها على ، كرّم الله وجهه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

الفصل الثالث

سيدة نساء أهل الجنة ؛ أكمل النساء ، وخير نساء العالمين

السيدة مريم العذراء عليها السلام

(وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين)

(آل عمران : آية ٤٢) .

(ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكُتُبِه وكانت من القانتين)

(سورة التحريم : آية ١٢) .

مولد السيدة العذراء

كانت مريم العذراء آية للعالمين فى ميلادها . فقد حملت بها أمها حنَّة بنت فاقود بمعجزة إذ كانت عجوزاً عاقراً لا تلد . وكانت الزوجة الصالحة للحبر الجليل عمران وكان رجلاً صالحاً تقيا حكيماً .

وقد نقل إلينا البيضاوى فى تفسيره : فبينما هى فى ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنَّت إلى الولد وتمنته فقالت : اللهم إنَّ لك علىّ نذراً إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من خدمه . فقال لها زوجها : ما تصنعين إن كان الحمل أنثى ؟ ومات عمران وهى حامل بمريم .

قالوا : وكانوا يتمنون الولد لما يكون عليه من القوة والجَلَد على العبادة والصبر والاحتمال على الخدمة فى المسجد الأقصى .

ففى تلك الصلاة القصيرة الخاشعة . وفى تلك المفاجأة الكريمة الصادقة التى فاض فيها قلبها بالرجاء ولهج لسانها بالدعـــاء حملت حنَّة بنت فاقود

بمريم ... كقوله تعالى : ﴿ إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى مُحرراً فتقبّل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ (آل عمران : ٣٥) .

ومضت الأيام والشهور ، وجاءت اللحظة العظيمة لحظة الميلاد ، يقصها القرآن فيقول ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أُنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (آل عمران ٣٦) .

فلما وضعت حنَّة بنت فاقود ، وتبينت أن الجنين الذى انفصل منها أُنثى وكانت ترجو أن يكون ذكراً ، ليخدم فى بيت الله ، فتوجهت إلى الله بالدعاء كالمعتذرة أو الآسفة « إنى وضعتها أُنثى ... وإنى سميتها مريم » وهى بلغتهم الجارية العابدة . وقد شهد لها رسول الله ﷺ بالخير . فقال علىّ ﵁ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائهـا مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد » متفق عليه .

ولم يكن للشيطان على مريم سبيل فى حملها وولادتها . وقد استعاذت حنَّة أُمها بربها ؛ وهى التقية الصالحة ؛ فعصم الله مريم ببركة الاستعاذة ، جاء فى صحيح البخارى عن هذه الآية ، قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسّه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إيَّاه إلا مريم وابنها » .

ومن المُتفق عليه ما رواه البخارى وأحمد أيضاً : « كلُّ ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد ، غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فيه ، فطعن فى الحجاب » .

وتقبَّل الله تلك الوليدة الودعية المقدَّسة قبولاً حسناً ، وأسبغ عليها من فيض نعمائه ورعايته ورضوانه ، كقوله تعالى : ﴿ فتقبّلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ (آل عمران : ٣٧) .أي رضيها للتحـرر وأنبتها نباتاً حسناً ، فكانت تشبُّ فى كل يوم كما يشبُّ غيرها فى سنة .

ولما وضعتها لفَّتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد الأقصى ، فوضعتها بين

يدى الأحبار أبناء هارون ، ولهم يومئذ يكون أمر بيت المقدس كحجبة بنى شيبة للكعبة ·

وقالت : دونكم وهذه النذيرة ·

قال الثعلبى فى تفسيره لهذه الآية : أى سوَّى خَلْقها وخُلقها من غير زيادة ولا نقصان ، وهذا هو الكمال بعينه ·

وبهذه الكلمات يوجز القرآن الكريم حياة مريم وفضائلها الخَلْقية والخُلُقية ·

وكان من علامات رعاية الله لمريم أن جعل قلوب الأحباء المحيطين بها تتعاطف بدافع قوى من الجود والإيثار كلٌّ يود أن يختص بفضل القيام على تربيتها لأنها أولاً ابنة عمران ، وكان من خيرة شيوخهم تُقًى وورعاً · . وثانياً لأن أُمها نذرتها لله · وإنَّ فى خدمتها لله وعبادتها له منذ ذاك اليوم لسَبق إلى الخير وتقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى ·

من أجل ذلك تنافس الأحبار على كفالة مريم ·

كفالة زكريا للسيدة مريم عليها السلام

فقال لهم زكريا : أنا أحقُّ بها عندى ، خالتها ؛ وكان زكريا قد تزوج أشياع بنت فاقود أخت حنَّة أُم مريم ·

فقال الأحبار لزكريا : لا نفعل ، ولكنَّا نقترع عليها : فتكون عند من خرج سهمه · فانطلقوا ، وكانوا تسعة وعشرين ، إلى نهر الأردن قريباً من أريحا فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها التوراة والزبور فى الماء على أن من يجرى قلمه مع الماء فلا شأن له بها ومن وقف قلمه فهو صاحب الحظ السعيد بتربيتها · وكانت القرعة لزوج خالتها زكريا – نبى الله فيما بعد ·

وعاشت مريم فى بيت زكريا فى كنف رحب وأمان ورغد ، وكفلها زكريا واسترضع لها وضمّها إلى خالتها أُم يحيى ، وسارت مريم فى مدارج الطفولة ناعمة البال ، تترعرع فى نضارة حتى اجتازت مرحلة النشوء وشارفت مصيرها المُنتظر ورسالتها المُقبلة ، ويمكننا أن نجمل حياة مريم فى تلك المرحلة

فى أُمور أربعة : أولها منبتها الكريم ، وثانيها : إشراف زكريا عليه السلام على تربيتها ، وثالثها : نشأتها فى أمن ودعة وهناءة ، ورابعها : استواء خَلْقها وخُلُقها على الكمال ·

بقيت مريم فى كفالة زكريا عليه السلام ، فلما بلغت مبالغ النساء ووصلت إلى مرحلة الشباب أوت إلى محرابها الذى هيأه لها زكريا ، وتفرَّغت لعباده الله كما نذرت أُمها ، وكان لا يدخله أحدٌ سواها ؛ فقد جعل زكريا عليه السلام ، باب المحراب فى مكان لا يرقى إليها إلاّ بسلّم مثل باب الكعبة ، وما يصعد إليها سواه ، ومعه المفتاح ، وكانت إذا حاضت أخرجها من المسجد إلى منزله ، تكون مع خالتها فإذا طهرت ردَّها إلى المسجد · وقيل إنما أدخلها المسجد من أجل نذر أُمها اقترعوا عليها بعدما بلغت ·

وبقيت مريم تعبد الله فى محرابها ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وخدمته ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صار يُضرب بها المثل فى بنى إسرائيل فى التُّقى والصلاح ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ·

وعامَّة العلماء على أن زكريا كفلها · ولم تزل عنده يأتيها بطعامها وشرابها · وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب على باب المحراب وهو باب الغرفة ، وكان إذا عاد وجد أمراً عجيباً ، كان يجد فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، فيتعجب لذلك لأنه لم يحضرها ، ولا يصعد إلى المحراب أحدٌ غيره ، فيتعجب ويُكبر شأنها ، ويسألها وتجيبه بما يزيده إجلالاً لها وتفاؤلاً بها ·

يقص علينا القرآن فيقول : ﴿ وكفلها زكريا كلَّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (آل عمران : ٣٧) ·

وقال ابن عباس : تكلمت وهى صغيرة ·

نشأة السيدة العذراء

نشأت مريم عليها السلام نشأة طُهر وعفاف ، وبعد عن الآثام

والمحرّمات ، فعاشت فى جوار بيت المقدس ، مكلوءة بعناية الله ، محروسة برعايته سبحانه وتعالى ٠

وانبثق حول مريم نور جديد٠٠ وظهر من مكنون الغيب ما سبقت به كل امرأة قبلها وبعدها ؛ ذلك أن الملائكة نزلت عليها بوحى من عند الله ٠ ولم يعهد الناس أن الملائكة تنزل إلا على الأنبياء من الرجال ٠٠٠

يقول القرآن الكريم : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ٠ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ (آل عمران : ٤٣) ٠

فهذا وحى سماوى يؤكد لمريم وللناس فى شأنها ما رأوا بعضه رأى العين وعرفوه حق اليقين ٠٠٠ إنه اصطفاء وتطهير ، واصطفاء آخر وتكليف بالقنوت والصلاة ٠٠٠وهذا إيذان بأن مريم وقد اصطفاها ربها للعبادة وطهّرها تطهيراً كاملاً سوف يصطفيها بعد ذلك لأمر عظيم ستتمخض عنه الأيام ٠٠٠ ذلك الأمر الذى أثار عجب الدنيا ، وبهر التاريخ ، وجدد فى الإنسانية حدثاً عجيباً يعتبر من أصدق الآيات الكونية على إبداع الخالق وقدرته ٠٠٠ وذلك الأمر هو أنها فيما بعد ستلد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ٠ ويكلّم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين ٠ قالت رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون ٠ ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ (آل عمران : ٤٥ –٤٨) أى يدعو إلى عبادة ربه فى مهده وكهولته ٠ قالت مريم عليها السلام « كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى وإذا كنت مع الناس سبّح فى بطنى وكبّر » ٠

البشارة بالسيد المسيح عليه السلام

لما بلغت مريم مبلغ النساء وأصبحت فى سن الثالثة عشرة من العمر ، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابهـا ، وسارت جهة الشرق من بيت المقدس ، ترويحاً عن النفس ، وطلباً للراحة ، فبينما هى تسير ، إذ فاجأها

الملاك (جبريل الأمين) عليه السلام ، وقد تمثَّل لها فى صورة شاب وضيء الوجه ، حسن الصورة ، مستوى الخلق ، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه ، وارتابت فى أمره لأنه ظهر لها فجأة ، فظنت به الظنون وجعلت تبتعد عنه ، وهى تخشى أن يهمّ بها بسوء ، فى مكان ليس فيه منقذ أو نصير ، فلما رأى الأمين جبريل اضطرابها وخوفها ، طمأنها وأزال عنها الفزع ، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها ، وقال الملك مُجيباً لها :

لست ممن تظنين ولكنى رسول ربك بعثنى الله إليك ، ليهب لك غلاماً زكياً . يكون له شأن عجيب ، ويعطيه الله النبوة والحكمة قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسولُ ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ (مريم : ١٦ - ١٩) . قال (أبو حيان فى تفسيره) : « وإنما تمثَّل لها الملك فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ، ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملكيّة لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه .. ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحُسن ، وكان تمثله عى تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفَّتها » .

حين ظهر لَمريم بعد ذلك أنَّ الذى عرض لها فى خلوتها ليس بشراً إنما هو ملاك كريم . أنستْ واستبشرت به . ولكنها تعجّبت من قوله حين بشَّرها بالغلام ، فهى فَتاة بكر لم تتزوج ، ولم يقربها أحد من الرجال ، ولا تزال عذراء ، وهى عفيفة لم تقترف إثماً ، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها ؟

﴿ قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ! ﴾ (مريم : ٢٠) . وقد كان جواب الملاك لها (الأمين جبريل) : إنها إرادة الله ومشيئته ، فهو جلّ ثناؤه لا يُعجزه شيء وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كُن فيكون ﴿ قال كذلك قال ربك هو علىّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا ﴾ (مريم : ٢١) .

لقد شبَّت مريم عن الطَّوق راهبة فى عبادتها ، ملتزمة المحراب لا تخرج منه ، محصنة لفرجها ، حافظة لزمامها ، متبتلة فى محرابها ، متهيئة - وهى لا تدرى - لمقابلة الملك .

﴿ ومَرْيَم ابْنت عمْرانَ التى أحصنت فرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيه من رُوحنَا وصدَّقتْ بكلمات ربها وكتُبه وكانت منَ القانتين ﴾ فالآية تشير الى أن الملك نفخ فى جيب درعها فسرت النفخة بأمر ربها إلى روح البتول ، وبذلك تكوّن عيسى من نفخ روح الله فى مريم عليها السلام ، ويقول المفسّرون أن الذى قام بتلك النفخة هو الأمين جبريل ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾(الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤) . والذى نزل بالوحى على الرسل الكرام قطعاً إنما هو جبريل عليه السلام ؛ ويسمى « روح القدس » ويسمّى « الروح الأمين » عليه السلام .

مدّة الحمل

اختلف العلماء فى مدة الحمل ، فمن ذلك أنها حملت ساعة واحدة أو ثلاث ساعات أو تسع ساعات ، وقيل ثمانية أشهر ، رواه ابن عباس رضي الله عنهما . والصحيح ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى عليه فى تفسيره حيث قال : « فالمشهور الظاهر والله على كل شىء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، وهو تسعة أشهر ؛ إذ لو كان خلاف ذلك لذُكر ، واستدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً ، فأجاءها المخاض ﴾ (مريم ٢٢) . فقد عطف بالفاء وهى تدل على التعقيب ، فإن الصحيح أن تعقيب كل شىء بحسبه ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مُضغة . فخلقنا المُضغة عظاماً . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون : ١٤) .

ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت فى الحديث المتفق عليه[١] .

ظهور الحمل واتهام مريم عليها السلام

يروى ابن كثير أنه لما ظهرت مخايل الحمل على مريم وكان معها فى المسجد رجل صالح من أقربائها (ابن عمها) يخدم معها البيت المقدس يقال له

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٦٤ .

يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ردينها وعبادتها ثم تأمل ما هى فيه فجعل أمرها يجوس فى فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول فقال يا مريم : إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى على . فقـالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حَب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟! .

فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه ، واستطردت : أما قولك هل يكون شجر من غير حَب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجرة والزرع أول ما خلقهما من غير حَب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب ؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدَّقها ووقع فى نفسه أن الذى بها شىء من عند الله عزّ وجل ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه ، وذلك لما رأى من كتمانها لذلك . ثم تولى يوسف خدمة المسجد ، وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه ، وذلك لما رأى من رقّة جسمها واصفرار لونهـا ، وكلف وجهها ، ونتوء بطنها ، وضعف قوتها ، ودأب نظرها ، ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك ، وكانت خالتها زوج زكريا عليه السلام حاملاً بابنها يحيى . روى السدّى بإسناده عن الصحابة رضوان الله عليهم أن (مريم) دخلت يوماً على خالتها - زوج زكريا . فقالت لها خالتها : أشَعَرتِ أنى حُبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أنى حُبلى ؟

فاعتنقتها وقالت لها (أم يحيى) : إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك .

قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى ، قال : وبلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة[1]

قد شاع الخبر فى بنى إسرائيل أن « مريم » حامل ، فما دخل على أهل بيت من الهم والحزن كما دخل على آل بيت زكريا ، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذى كان يتعبد معها فى المسجد ، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام . ويقول (ابن جرير) : إنهم أرادوا قتل زكريا ففرّ منهم فلحقوه حتى

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٦٥ .

أمسكوا به ثم نشروه بالمنشار فقُتل صلوات الله عليه بأيدى اليهود ويتفق عامة المؤرخين على أن زكريا نُشر قبل مقتل يحيى . وقال السدّى والكلبى وابن إسحاق : قُتل زكريا وليحيى سبع سنين ، وما نُبىء إلا بعد قتل أبيه . قال تعالى ﴿ وآتيناه الحُكم صَبيّاً ﴾ (مريم : ١٢) قيل ، إنَّ يحيى قال له أترابُهُ من الصبيان : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للّعب خُلِقْت . وقيل إنه نُبىءَ صغيراً ، وكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم ، ومجامعهم ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ثمّ ساح يدعو الناس[1] .

ميلاد السيد المسيح عليه السلام

فلما دنا نفاسها أوحى الله إلى مريم أن اخرجى من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيَّروك وقتلوا ولدك . فأفضت عند ذلك إلى أُختها ، وأختها حينئذ حُبلى[2] ، وَقد بُشّرت بيحيى ، عندئذ خافت على نفسها ووليدها فتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً فلا يراها أحد ولا تراه . وقال ابن وهب : كانت أُم يحيى حاملاً به فاستقبلتها مريم وهى حامل بعيسى ، فقالت لها أُم يحيى : أنت أُم عيسى أنت حامل . قالت : ولم ؟ قالت لأنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . وولد يحيى عليه السلام فى أيام أردشير بن بابك ، وقيل فى أيام سابور بن أردشير ، واتفقوا على أنه قُتل ظُلماً شهيداً ، وغضب الله على قاتليه من اليهود وسلَّط عليهم بختنصر وجيوشه ، وكان وَعد الله مفعولاً . وقال الكلبىّ : كان زكريا يوم بُشِّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة ، وقيل تسع وتسعين سنة ، وعن ابن عباس : كان ابن عشرين ومائة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة . وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « ثم عُرِجَ بى إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ففُتحَ لنا ، وإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بى وَدَعَوا لى بخير » (أخرجه الشيخان وأحمد والنسائى عن مالك بن صعصعة [الفتح الكبير]) . قال المفسّرون أوّل من آمن بعيسى يحيى عليهما السلام ، وقال الثعلبّى كان مولد يحيى قبل مولد عيسى بستة أشهر . وفى رواية أخرى

---

(١) نهاية الأرب ج١٤ ص٢٠١ .
(٢) تاريخ الملوك للطبرى .

أن مريم عليها السلام ذهبت هاربة قاصدة أرض مصر ، فاحتملها يوسف على ظهر حمار له ، فلما كانت على بُعد ثمانية أميال من بيت المقدس فى قرية هناك يُقال لها بيت لحم ، فأجأها الطلق فاضطرها وألجأها إلى جزع النخلة وهو ساقها وكانت نخلة يابسة ليس لها رأس ولا سعف ، وقال تعالى : ﴿ فأجاءها المخـاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا ﴾ (مريم : ٢٣) . أى لم أُخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس ﷺ وقال السدّى قالت تَطلق من الحبل؛ استحياء من الناس ؛ يا ليتنى متُّ قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود من غير بعل .

فلما وضعت وهى محزونة ، ﴿ فناداها من تحتها ألاَّ تحزنى قد جعل ربُّك تحتك سريا ﴾ (مريم : ٢٤) . قرئت « من » بفتح الميم أو كسرها ، فمن قرأ بالفتح ذهب إلى أن عيسى ناداها لما خرج من بطنها وهو المشهور وبه قال أكثر المفسرين ومن قرأ بالكسر عنى أن الذى ناداها هو الملك جبريل عليه السلام من أسفل الوادى ووُلد عيسى عليه السلام ببيت لحم يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ، فى زمن الشتاء « قد جعل ربُّك تحتك سريّا » السرى هو النهر الصغير . وقال الحسن : المراد به عيسى عليه السلام ، لأنه كان سريّاً أى عالياً رفيعاً ، وقال ابن الأنبارى : رجع الحسن عن هذا القول إلى القول الأول، والأول أصح لوجهين : أحدهما : لأنها لم يكن عندها طعام ولا شراب ، فنوديت قد أطعمناك الرُّطب من النخلة ، وأجرينا لك النهر .

والثانى : لأن الله تعالى جعل ريهما فى النهر ، وكان طوع أمرها ، إن أمرته جرى ، وإن أمرته وقف . وقال ابن عباس[1] : ضرب جبريل بجناحه الأرض ، فجرى النهر من عين عذبة باردة ، وأورقت النخلة بعد يبْسهـا وأرطبت . وقال مقاتل : لما سقط عيسى إلى الأرض ضرب برجله ، فنبع المـاء ، وأطلعت النخلة ، وأحدقت بها الملائكة .

وقيل كان يوسف النجار معها فأوقد لها ناراً ، وأطعمها سبع جوزات وقال وهب[2] : لما وضعته خرّت الأصنام سُجّداً لله ، فأخبرت الشياطين

---

(١) العرائس ص ٣٨٤ .

(٢) المرجع نفسه .

إبليس، فبثَّهم فى الدنيا ، أى جعلهم أشتاتاً ، وخرج هو فجاء إلى المكان الذى فيه عيسى والملائكة قد حفّت به ، فلم يتجاسر أن يدنو منه ، فرجع إلى أعوانه ، وقال لهم : وُلد مولود عظيم معه نور ، لم أقدر على الدنو منه ، ومن عظم أمره أن الله كتَم عنى حاله ، ولم تضع أُنثى إلا وأنا حاضرها . ثم مشى فى الناس ، فأشاع الفاحشة .

وقوله تعالى : ﴿ وهزّى إليك بجذع النخلة ﴾ (مريم : ٢٥) أمر من الله تعالى بتكلّف الكسب فى الرزق ، وقد قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسّب كما قال تعالى ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (آل عمران : ٣٧) قال العلماء : كان قلبها فارغاً لله ، ففرّغ الله جارحتها عن النصَب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، وكَلَها الله إلى كسبها ، وردَّها إلى العادة فى التعلّق بالأسباب ، وفى معناه أنشدوا :

ألم تر أن الله قال لمريم إليك فهُزّى الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزِّها إليها ، ولكن كل شىء له سبب
وقد كان حبُّ الله أولى برزقها كما كان حُب الخلق أدعى إلى النصَب

ثم إن النخلة كانت خضراء ، ولكنه كان زمان الشتاء ، فصار وجود الثمر فى غير إبانه آية ، وكان الجذع يابساً فهزَّته ، فاخضرَّ وأورق وأثمر فى لحظة .

يقول صاحب أحكام القرآن : دخلت بيت لحم سنة خمس وثمانين وأربعمائة فرأيت فى متعبَّدهم غاراً عليه جذع يابس كان رُهبانهم يذكرون أنه جذع مريم بإجماع ، فلما كان فى المحو سنة اثنتين وتسعين دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه لستة أشهر ، فرأيت النار فى المتعبَّد خالياً من الجذع . فسألت الرهبان به ، فقالوا : نخر وتساقط ، مع أن الخلق كانوا يقطعونه استشفاء حتى فقد[1] .

وقوله تعالى : ﴿ تساقط عليك رُطباً جنيّا ﴾ (مريم : ٢٥) وقيل إنها قالت (أى مريم) : لا تعجبوا أنه أراد أن يكون فى يدها معجزة ، كما جعل معجزات بعض الأنبياء فى أيديهم . وقيل إنها قالت بلسان الحال لا تعجبوا من

(١) أحكام القرآن لابن العربى ص ١٢٥٢ .

ولد بغير أب ، فهذه النخلة اليابسة من غير تلقيح ولا فحل قد تساقط منها الرُّطب · وقيل هُزِّى إليك شجرة التوحيد والتمكين تَساقط عليكِ رُطَب الرضى والأُنس والصدق واليقين ·فإن قيل : فلَم أجرى النهر بغير سعيها ولم يعطها الرطب إلاّ بالهزّ ؟ قلنا : أراد أن يُريها أنه سبحانه يفعل بسبب وغير سبب · فكُلى من الرطب واشربى من النهر وقرّى عيناً بولادة عيسى ﴿ فإمَّا تَرين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أُكلّم اليوم إنسيا ﴾ (مريم : ٢٦) صوماً : أى صمتاً ، وإنما أُمرت بالسكوت ، لأنها لم يكن لها حجة عند الناس ولا ما تدفع به الخصوم ·

وإنما أمرها بالسكوت فى بداية الحال لعدم البرهان · فلما تكلّم عيسى عليه السلام زال السكوت · وقال الكلبىّ : حملها يوسف النجار وابنها ، فأدخلها غاراً ، فأقامت فيه أربعين يوماً حتى تعالت عن نفاسها ، فخرجت به ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ﴾ فلما رأوه حزنوا وبكوا وكانوا قوماً صالحين وقالوا : ﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ﴾ (مريم : ٢٧) أى عظيماً « يا أخت هارون » يعنون هارون أخا موسى بن عمران ، لأن أُمها كانت من نسله · وقيل إن هارون كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل شيَّع جنازته من أولاد الأنبياء أربعون ألفاً كلهم اسمه هارون ، شبهوها به فى صلاحه ، وكانت كذلك · وقيل إنه كان فى بنى إسرائيل رجل اسمه هارون من أفسق الناس ، فشبهوها به · وقيل إن هارون أسم أخ لها من أُمها ·

﴿ ما كان أبوك امرأ سَوْء ﴾ أى زانياً ﴿ وما كانت أُمُّك بَغيّا ﴾ (مريم : ٢٨) أى فاجرة ، فمن أين لك هذا الولد ؟ « فأشارت إليه » أن كلّموه « قالوا كيف نُكلّم من كان فى المهد صبيا » (مريم : ٢٩) قال مقاتل : كلّمها فى الطريق ، فقال لها : يا أُماه أبشرى فإنى عبد الله ورسوله ومسيحه ، فكانت على ثقة من كلامه ·

﴿ قال إنى عبدُ الله آتانى الكتاب ﴾ وهو الإنجيل ومعناه سيؤتينى ، وإنما نطق فى أول كلامه بقوله عبد الله ردا عليهم ؛ لأنه علم أنهم يقولون ابن الله ، فاعترف بالعبودية والنبوَّة ، فارتفعت النبوَّة ضرورة ·

وقال مجاهد : كان ثديها فى فمه فنزعه وكلمهم جالساً · قوله ﴿ آتانى الكتاب ﴾ أى علم التوراة ، وأنا فى بطن أُمى ﴿ وجعلنى نبيّاً ﴾ (مريم : ٣٠)

أى سيجعلنى ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ﴾ (مريم : ٣١) وهذا يدل على أنهم كان لهم شرائع وعبادات .

وولد عيسى عليه السلام فى عهد أردشير بن بابك بعد الاسكندر بثلاثمائة سنة ، وكانت المملكة فى ذلك الوقت لملوك الطوائف ، والرئاسة بالشام لقيصر ملك الروم ، وكان هيرودوت نائباً عنه بالشام .

هيرودوت يتآمر على قتل المسيح وخروج مريم وابنها إلى مصر

وفى ليلة ميلاد السيد المسيح يحدثنا الطبرى أن بعض الكهنة من بنى إسرائيل طلع عليهم نجم أنكروه ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانيال . فخرجوا يريدونه ، ومعهم الذهب والمُرّ واللبان ، فمرّوا بملك الشام (هيرودوت) ، فسألهم : أين تريدون ؟

فأخبروه بذلك ، قال : فما بال الذهب والمرّ واللّبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها ؟ قالوا : تلك أمثاله : لأن الذهب هو سيّد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى هو سيّد أهل زمانه ، ولأن المرّ يُجْبر به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبىّ يشفى به الله كلّ سقيم ومريض ؛ ولأن اللّبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبى يرفعه الله إلى السماء لايُرفع فى زمانه أحد غيره .

فلما قالوا ذلك لهيرودوت ، حدّث نفسه بقتله ، فقال : اذهبوا ، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فإنى أرغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره ، فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية إلى مريم ، وأرادوا أن يرجعوا إلى هذا الملك ليُعلموه مكان عيسى ، فلقيهم من أخبرهم بما عزم عليه هيرودوت من قتل عيسى عليه السلام فانصرفوا فى طريق آخر .

ونتابع قصة المؤامرة على عيسى عليه السلام فى الرواية التالية تقول : إنه لـمّـا شاع خبر عيسى عليه السلام قصد الملك(هيرودوت) وبنو إسرائيل قتله ، وذلك لأنهم نظروا إلى نجم طلع يكون سبباً لظهور دين عيسى عليه السلام .

فبعث الله مَلَكاً إلى يوسف النجار يأمره بإخراج مريم وابنها إلى مصر ، فسار بهما على حمار .

وكانت مريم تغزل الكتّان وتلقط السنبل وتتقوّت به ، حتى وردوا أرض

مصر فهى الربوة التى قال الله فيها ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ (سورة المؤمنون : ٥٠) · وفى هذا تكريم من الله تعالى لمصر بمريم وابنها عليهما السلام ووجه الإشارة إلى ذلك كما يقوله ثُقاة المفسرين من أن الربوة ذات القرار والمعين هى مصر كما قدر ذلك ابن زيد فى رواية الإمام القرطبى ·

حياة مريم والسيد المسيح فى مصر

لما ذهب يوسف النجار بعيسى وأُمه إلى مصر ، نزلوا فى دار دهْقان من أهل مصر ، فسُرق له مال ، فضاق صدر مريم ، فقال لها عيسى ، وكان قد ترعرع : يا أُمّ ، أتحبين أن أدله على ماله ؟

قالت : نعم يا بنى !

قال : قولى له يجمع لى مساكين داره ، وكان لا يسكن فى دار الدهْقان إلا المساكين فلم يتهمهم ، فجمعهم الدهْقان وفيهم رجلان أعمى ومُقعَد · فأمر عيسى عليه السلام بأن يحمل الأعمى المَقْعدَ على عاتقه ، وقال له قم به :

فقال الأعمى : لا أقدر ، وإنى ضعيف ·

فقال له عيسى عليه السلام : كيف قويت البارحة على حمله إلى الخزانة حتى أخذ المال ؟ فأنكر ، فضربوه ، فأقرَّ وردَّ المال ، فوضعه الدهْقان فى خزانته ، وقال : يا مريم خذى نصفه ، قالت: إنى لم أُخلق لذلك ·

قال الدهْقان : فأعطيه ابنَك ، قالت : هو أعظم منى شأناً ، وكانت هذه أول آية رآها الناس من عيسى عليه السلام ·

وكانت مريم تخاف على عيسى عليه السلام ، فكانت تكتم أمره من الناس ، لا يطّلع إليه أحد وكانت لا تأمن عليه ولا على معيشته أحداً ، وكانت تلتقط السنبل حيث ما سمعت بالحصاد ، والمهد فى منكبها والوعاء الذى تجعل فيه السنبل فى منكبها الآخر · وقال مجاهد : كان عيسى يلقط مع أُمه السنبل، فإذا عرِفا فى مكان تحوَّلا إلى غيره ، وأين ما أدركه المساء بات ، ولم يمسَّ امرأة ولا طيباً ، ولم يلبس قطناً ولا كتاناً ولم يجعل بينه وبين الأرض حائلاً ، ويمشى وعليه برنسٌ وبيده عصا ، ويقنع باليسير ، ويقول : هذا لمن يموت كثير · وقد اتفق أهل العلم على أن ما أظهره الله لعيسى من الخوارق قبل النبوّة يُسمّى إرهاصاً وبعد النبوّة ونزول الوحى يُسمَّى معجزة ·ومن هذه الإرهاصات ما رواه عكرمة قال : كان عيسى عليه السلام يتحدث مع الصبيان فى الكتّاب

بما يأكلون فى بيوتهم ، فيخبرون أهاليهم ، فيقولون لهم : إيَّاكم . قال : فما فى هذا البيت ؟ قالوا : خنازير . قال : خنازير ، إن شاء الله ، ففتحوا الباب وإذا هم خنازير .

ومنها ، قال الكلبى : ذهبت به أمه عليهما السلام إلى صاحب مصبغة ، بعدما خرج من الكتَّاب ، فاجتمع عنده ثياب كثيرة ، وعرض له سفر ، فقال لعيسى : أنا مسافر ، وعندنا ثياب مختلفة الألوان ، وقد وضعت على كل ثوب منها علامة باللون الذى تُصْبَغُ به ، فلا أُقدم إلا وقد فرغت منها وسافر ، وأخذ عيسى الثياب ، وألقاها فى المصبغة جميعها على لون واحد . وقال لها : كونى مختلفة الألوان بإذن الله ، على ما أُريد . وقَدِمَ صاحب المصبغة ، فوجد الثياب وقد وُضعت كلها على لون واحد فقال : لقد أفسدتها علىّ . فقال له : على رسلك . ثم أدخل يده فى المصبغة ، وأخرج كلَّ ثوب على لون العلامة التى عليه ، ما بين أحمر وأصفر وأخضر وغيره . فآمن به الصبّاغ وأصحابه ، فيُقال إنهم الحواريون .

ومنها أن الدهقان الذى كانا يقيمان عنده هو وأمه ، كان له ولد يتزوج ، فاقام له عُرْساً جُمع فيه عدد كبير من أهل مصر ، فلما انتهى العُرْس ، زاره قوم من أهل الشام على غير موعد منهم ، حتى نزلوا به ، وليس عنده يومئذ شراب ، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتاً من بيوت الدّهْقان فيه صفَّان من الشراب ، حتى أتى عيسى على آخرها ، وهو يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة فلما فعل ذلك عيسى فزع الناس لشأنه وما أعطاه الله من ذلك ، وهنا تتجلى عناية الله للسيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام ، ورعايته لهما فيهلك هيرودوت الملك ، ويجيء الأمر الإلهى بوحى من عنده إلى مريم أن يعودا إلى الشام .

خروج مريم وعيسى إلى الشام

لما مات الملك هيرودوت ، صدر الأمر الإلهى إلى مريم [١] أن تعود هى وابنها عيسى عليهما السلام إلى الشام ففعلت الذى أُمرت به ، قال كعب : فخرج هو وأمه ويوسف النجار ، فنزلوا بالناصرة ، فنسبوا إليها . وأخذ فى

(١) بواسطة أمين الوحى (جبريل) عليه السلام كما تقدم .

مداواة المرضى والعميان ، فجاء إبليس ومعه شيطانان ، وتصوّر هو فى صورة آدمى ، فجلس بمحضر من الناس ، وأشار إليه ، وقال : هذا تكلم فى المهد ، ويُبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى . فهذا هو الله تعالى .

فقال أحد الشياطين : أخطأت أيها الشيخ ، لا يُتصوَّر أن يتجلى الله لعباده ، ولكن هو ابن الله .

فقال الآخر : أخطأتما ، إنما هو إله آخر .

فصار الناس فيه ثلاث فرق : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكية . وقالوا بالتثليث !!!

نزول الوحى ورسالة المسيح عليه السلام

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله فى التبصرة : أوحى الله إلى عيسى وهو ابن ثلاثين سنة ، وأنزل عليه الإنجيل . وكان يجتمع على بابه خمسون ألفاً فيداويهم بالدعاء ؛ وكان يقول لأصحابه : أهينوا الدنيا تكرم الآخرة عليكم ، إنكم لا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون .

وقال مجاهد : كان عيسى عليه السلام ، آدم ، سبط الشعر ، وقيل أبيض ، لم يذهب رأسه قط ، وكان يمشى حافياً ، ويركب ، ويجلس على الأرض ، ويأكل الطعام ، ويصوم النهار ، ويقوم الليل ، وكان يجتمع على بابه كلَّ يوم من المرضى والزَّمنى[1] خمسون ألفاً فيداويهم بالدعاء فيبرأون ، فاتبعه خلق كثير ، وسألوه أن يحيى سام بن نوح ، فجاء إلى قبره وناداه يا سام ، فانشق القبر عنه ، وقام ينفض التراب عن رأسه ، وقال له عيسى عليه السلام : منذ كم مت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة ، أو ثلاثة آلاف وما بردت عنى حرارة الموت .

ثم قال لهم : هذا عيسى ، روح الله وكلمته وآيته ، فاتَّبعوه ولا تعصوه .

وقال السدِّى : وصف لهم عيسى عليه السلام سفينة نوح ، فقالوا : نحب أن نرى من شهدها . فأتى بهم إلى البثنية من أرض حوران ، فسأل

---

(١) الزمنى : جمع زَمِين ، والزمانة : العاهة .

الله تعالى ، فأقام سام بن نوح وقد شاب نصف رأسه ، فقال : أقامت القيامة ؟ قال : لا ، ولكنى دعوت الله باسمه الأعظم ، فأحياك ، فنعت له السفينة ، ثم عاد إلى قبره .

وقال ابن عباس : كان عيسى عليه السلام يقول : لباسى الصوف ، وشعارى الخوف وبيتى المسجد ، وطيبى الماء ، وآكل من نبات الأرض ، وإدامى الجوع ، ودابتى رجلاى ، وسراجى القمر ، وصلاتى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وفاكهتى وريحانى بقول الأرض ، وجلسائى المساكين والزمنى ، وأصبح وأُمسى وليس لى شىء ، وأنا طيبُ القلب ، فمن أغنى منى ؟ وليس لى ولد يموت ولا بيت يخرب ، ولا أدَّخر شيئاً لغد .

وقال محمد بن سباع النميرى : بينا عيسى عليه السلام يسيحُ فى بعض بلاد الشام ، اشتد به المطر والرعد والبرق ، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه ، فرُفعت له خيمة من بعيد فيها امرأة ، فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل ، فأتاه ، وإذا فى الكهف أسد ، فرفع يديه وقال : إلهى جعلت لكل شىء مأوى ولم تجعل لى مأوى ، فأجابه الجليل :

مأواك عندى فى مستقرِّ رحمتى ، لأزوِّجنَّك يوم القيامة مائة حوراء ، ولأطعمنَّ فى عرسك أربعة آلاف عام مثل عُمر الدنيا ، ولآمرنَّ منادياً ينادى : أين الزاهدون فى الدنيا ، أحضروا عرس الزاهد عيسى ابن مريم .

وقال ابن المسيَّب : مرَّ عيسى عليه السلام فى سياحته بنهرين يجريان من أصل جبل ، فوقف ينظر إليهما ، فأنطق الله الجبل وقال له : يا عيسى ممَّ تتعجب ؟!

فقال : من هذين النهرين !

فقال : أما الذى عن يمينى فدمع عينى اليمين ، وأما الذى عن يسارى فدمع عينى اليسار .

قال : فما سبب بكائك ؟ قال : خوفى من نار وقودها الناس والحجارة، فسل ربَّك أن يؤمننى وإيَّاكم ، ولا يجعلنى من وقودها ، فسأل الله عيسى فيه فقال الله تعالى :قد أمنته منها . فأخبره عيسى ، فمدَّ الوادى من الجبل إلى الجبل ، وارتفع الماء إلى أعلاه ، وكاد عيسى عليه السلام يغرق ، فقال له عيسى عليه السلام : ما هذا ؟

فقال الجبل : يا روح الله ، تلك دموع الخوف والحزن ، وهذه دموع الشكر والحمد .

وقال الغزالى : اجتاز عيسى عليه السلام بقرية خراب ، وأهلها موتى على الطرق ، فقال عيسى عليه السلام : يا معاشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخط ولو ماتوا عن رضى لتدافنوا ؛ فأوحى الله إليه : إذا جاء الليل فسلهم . فنادى عيسى عليه السلام فى الليل : يا أهل هذه القرية ، فأجابه واحد منهم : لبيك يا روح الله فقال : ما بالكم كذا ؟

فقالوا : بِتنا فى عافية ، وأصبحنا فى الهاوية .

قال : ولِمَ ؟ قال : بحبّنا الدنيا .

قال : وكيف كان حبكم لها ؟

فقال : حبُّ الصبىِّ لأمه ، إن أقبلت فرحنا وإن أدبرت حزنّا . ثم قال يا نبيَّ الله ، ولم أكن منهم ، وإنما أتيتهم زائراً ، فنزل عليهم السخط ، فعمَّنى معهم . قال : وأين أهلها ؟

قال : قد أُلجموا بلجم من نار ، فلا يقدرون على الكلام .

فقال عيسى عليه السلام لأصحابه : والله لأكْلُ خبز الشعير والنوم على التراب ولبس المسوح أحسن حالاً من هؤلاء ؛ يا معشر الحواريين خذوا الحق من أهل الباطل ، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحقّ ، كونوا مستعدين لئلا تجور عليكم الزيوف .

وقال وهب : كان عيسى عليه السلام يمشى على وجه البحر ، ولم يكن أحبَّ إليه من أن يُقال له يا مسكين .

من هم الحواريون ؟

يجيب الحق تبارك وتعالى آمراً عباده المؤمنين[١] أن يكونوا أنصار الله فى أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : « من أنصارى إلى الله » أى من مُعينى فى الدعوة إلى الله عز وجل[٢] .

---

(١) المقصود أصحاب النبى ﷺ .

(٢) تفسير ابن كثير .

« قال الحواريون » وهم أتباع عيسى عليه السلام « نحن أنصار الله » أى نحن أنصارك على ما أُرسلت به ومؤازروك على ذلك ولهذا بعثهم دُعاة إلى الناس فى بلاد الشام إلى الإسرائيليين واليونانيين .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ (سورة الصف : ١٤) .

وتترى المعجزات ، وبوحي من الله ، على يد سيدنا عيسى عليه السلام ، فيقص علينا القرآن الكريم منها[1] إنزال المائدة . قال الله تعالى : ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ (المائدة ١١٢) والحواريون الخواصّ الأصفياء ، والوزراء ممن يصلح للخلافة ويُستعان به في النوائب .

وقيل : إنما سمُّوا بذلك لبياض ثيابهم . وقيل : إنهم القصارون . قال وهب : مرَّ عيسى عليه السلام على بحيرة طبرية ، فرأى عليها قصارين .

فدعاهم إلى الله ، فآمنوا .

وقيل : إنهم المجاهدون . وقيل : إنهم الصيادون الذين يصيدون السمك وقيل : إنهم الملوك .

وقيل : سمُّوا بذلك لصفاء قلوبهم . وكانوا اثنى عشر رجلاً تبعوا عيسى عليه السلام ، وآمنوا به . وأسماؤهم : شمعون ولوقا ويوحنا ومرقس وتوما وبطرس ويعقوبس ، ويحنَّس وأندريس وفيلبس ومتى وتوماس ورأسهم شمعون . والذين نقلوا الإنجيل منهم أربعة : شمعون وبطرس ويعقوبس ويحنَّس . واتفقوا على أن عيسى عليه السلام بعث شمعون إلى أنطاكية فى قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ (يس : ١٣) وكانوا يُسمّون يحيى بن زكريا عليهما السلام المعمدانى ، لأن عيسى عليه السلام عمده فى الأردن عند أريحا ، وقيل فى بحيرة طبرية .

وكان إذا جاعوا ضرب بيده الأرض ، فظهر لكل واحد رغيفان ، وإذا

---

(٣) العرائس ص ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٧ .

عطشوا يضرب الأرض بيده فينبع الماء ، فقالوا : يا روح الله من أفضل منا ، ونحن إذا جُعنا أُطعمنا وإذا عطشنا سُقينا ؟

فقال : أفضل منكم من عَمِلَ بيده وأكل من كسبه !

قال ابن عباس : فصاروا قصَّارين يغسلون الثياب بالكراء ، وقال مجاهد : مرَّ بهم عيسى عليه السلام وهم يصيدون السمك من بحيرة طبرية ، فدعاهم إلى الله وقال : تعالوا حتى البشر فاتّبعوه ، وقيل إنما الحواريون ذلك قبل أن يصحبوه ويشاهدوا معجزاته .

ثم قول عيسى عليه السلام لهم : ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ (المائدة : ١١٢) أتنسبون إلهكم إلى العجز ؟ ! قالوا :نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا » بأنك رسول الله ، وقد أجاب دعاءك ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ (المائدة : ١١٣) لله بالقدرة ولك بالرسالة ، قال عيسى : ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً ﴾ - والعيد من العود - وأنه منك نستدلُّ على قدرتك ، وارزقنا الشكر على نعمتك ، ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ (المائدة : ١١٤) « قال الله » مُجيباً لهم ﴿ إنى مُنَزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أُعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين ﴾ (المائدة : ١١٥) وهو المسخ قردة وخنازير .

قال الحسن : لما سمعوا هذا الشرط قال بعضهم : لا حاجة لنا فيها ، واختلفوا هل نزلت أم لا على قولين ، أحدهما : ما نزلت ، وإنما هو ضَرْب مثل ، ضرَبه الله لهم لأن الله نهاهم عن سؤال الآيات لانتسابه ، قال مجاهد . والقول الثاني : أنها نزلت ، وعليه عامة العلماء .

قال وهب[1] : وقف عيسى عليه السلام خاشعاً خاضعاً بين يدى الله تعالى يبكى ويتضرّع ، وإذا بمائدة قد نزلت بين غمامتين ، واحدة تحتها وأُخرى فوقها فاستقرت بين يديه ، وعليها سُفْرة خضراء ، والقوم ينظرون إليها ، وهى مُغطاة بمنديل ، وكان عليها سمكة مشوية وليس فيها شوك ، وحولها البقول ما خلا الكراث ، وعند ذَنَبها سُكُرّجة فيها خل ، وعند رأسها أُخرى فيها ملح ، وحولها خمسة أرغفة ، على رغيف تمر ، وعلى رغيف زيتون ، وعلى رغيف

(١) العرائس ص ٣٩٨ .

خمس رمانات[١] . وقيل كان عليها خبز ولحم . وقيل خبز وسمك . وقيل سبعة أرغفة من شعير وسبع سمكات ، وقيل سمك ولحم . وقيل كان عليها أثمار الجنّة وسمن وعسل .

فقال عليه السلام : أيكم أوثق فى نفسه فيكشف هذا المنديل . فقالوا : يا روح الله أنت أولى ؛ فكشفها .

فقال شمعون رأس الحواريين : يا روح الله أَمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الجنّة ؟فقال : لا من هذا ولا من هذا ، ولكن شيء قال له الله كن فكان .

فقال الحواريون : نريد أن تُرينا آية فى هذه الآية ، فقال : سبحان الله ، ما اكتفيتم بها ؟! ثم أشار إلى السمكة وقال لها : عودى بإذن الله كما كُنت طريَّة حيَّة ؛ فاضطربت على المائدة . فقال : عودى مشويَّة ، فقال : كلوا . فقالوا أنت أول من يأكل . فقال : معاذ الله ، إنما يأكل منها من سألها ، فلما رأوا امتناعه ، خافوا أن يكون نزولها عقوبة ؛ فدعا عيسى عليه السلام الفقراء والمساكين والزمنى ، فقال : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم ليكون مهنّأً لكم وعقوبة لغيركم . قال وهب : فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان ، صدروا عنها شباعاً ، وهى على حالها ، فصحَّ كل مريض واستغنى كل فقير أكل منها . ثم كانت تنزل عليهم بعد ذلك ، فيزدحمون عليها . وكانت تنزل يوماً وتغيب يوماً ، فنزلت أربعين يوماً .

وقال لهم عيسى عليه السلام : كلوا ولا تدَّخروا ، فادَّخروا منها فمُسخوا قردة وخنازير ، وقال ابن عباس : إنما مُسخوا لأن الذين أكلوا منها لما رجعوا إلى قومهم قالوا لهم : سحر عيسى أعينكم . وبلغ عيسى عليه السلام ، فدعا عليهم ، فمسخوا وماتوا بعد ثلاث .

قالوا : ولم يعش مسخ أكثر من ثلاث . وقيل : إنهم خبأوا منها لأنهم ظنوا أنها لا تنزل بعد ذلك . وقال قتادة : تُنزل متى أرادوا كالمن والسلوى .

وقال سليمان : لما خانوا مُسخ فى يوم وليلة ثلاثمائة وثلاثون رجلاً باتوا على فرشهم مع نسائهم أصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات ، ويأكلون

---

(١) العرائس : على واحد منها زيتون والثانى عسل والثالث سمن والرابع جبن والخامس قديد .

القذرات ، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام ، فبكوا بين يديه ، فرقَّ لهم ، وسأل الله فيهم ، فقال الله تعالى : أكتبُ على نفسى أنَّ من كفر بعد إنزالها « فإنى أُعذبه عذاباً لا أُعذابه أحداً من العالمين » .

وقال عمّار : لما خصَّ بها الفقراء والمساكين تكلم الأغنياء بالقبيح ، وارتابوا .

ومنها ؛ قال وهب بن الوردة : بلغنا أن عيسى عليه السلام مرَّ بلصّ فى قلعة ومعه رجل من الحواريين ، فلما رآهما اللصّ ألقى الله فى قلبه التوبة ، فقال فى نفسه : هذا عيسى روح الله وكلمته وهذا حواريّه ، ومن أنت يا شقى يا لصّ بنى إسرائيل ، قطعت الأرض ، وقتلت ، وأخذت المال ؟ ثم هبط من قلعته نادماً تائباً على ما كان منه . فلما لحقهما قال لنفسه : تريد أن تمشى معهما ، لست أهلاً لذلك ، أمشى خلفهما ، كما يمشى الذئب الخطّاء . فالتفت إليه الحوارى فعرفه ، فقال فى نفسه : انظروا إلى هذا الخبيث الشقى ومشيه وراءنا ؛ فاطّلع الله على ما فى قلوبهم من توبة اللص وما بدا منه ، وازدراء الحوارى به وتفضيله نفسه عليه ، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن مُرْ الحوارى ولصّ بنى إسرائيل أن يستأنفا العمل . أما اللص فقد غفرت له ما مضى بندامته وتوبته ، وأما الحوارى فقد أحبطت عمله لعجبه بنفسه وازدرائه لهذا التائب .

رَفْعُ عيسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ﴾ (آل عمران ٥٥) .

قال علماء السير : سبب رفعه أن اليهود حسدوه على مثل ذلك وظهور دينه ومعجزاته ، فتآمروا على قتله . قوله تعالى : ﴿ فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر ﴾ تيقَّن الفشل استنفر الحواريين فقال : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾؟ (آل عمران : ٥٢) أى من أعوانى ؟ . قال علماء السير : لما بعث عيسى إلى بنى إسرائيل عذّبوه ، فخرج هو وأُمه يسيحان فى الأرض ، فمرّوا بالحواريين ، وكلهم يصيدون السمك ، فقال : ما تصنعون قالوا : نصيد السمك ، فقال تمشون معى حتى نصيد بنى آدم ؟ فقالوا : من أنت ؟ قال : عيسى ابن مريم ، فآمنوا به ، وانطلقوا معه .

فلما رأت اليهود ما يبدو منه من المعجزات والآيات نسبوه إلى السحر فنهوه عن ذلك ، ونهوا الناس عنه ، فلم ينتهوا ، فعزموا على قتله ، فاستنفر عليهم الحواريين ، فقال : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد ﴾ علينا يا عيسى « بأنَّا مُسلمون » (آل عمران : ٥٢) .

وقصد اليهود قتله ، وطلبوه أشدَّ الطلب ، وأخبروا الملك ، وكان يهودياً ، فركب بنفسه ومعه اليهود ، فدخل عيسى عليه السلام خَوْخَةَ[1] ، ووقف الملك على بابها ، فقال رجل : أنا أدخل خلفه . فدخل ، فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام من الكوة (الفتحة) التي في الخوخة ، وخرج الرجل إلى أصحابه ، فقال : ليس في الخوخة أحد . فقالوا : بلى ، أنت هو .

فقتلوه وصلبوه . قال ابن عباس : فذلك قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (آل عمران : ٥٤) والمكر من الخلق الخداعُ ، ومن الله تعالى المجازاة على الأعمال .

وقال وهب : نصبوا لعيسى عليه السلام خشبة ليصلبوه عليها ، فأظلمت الدنيا وأرسل الله الملائكة فحالت بينه وبينهم ، وهناك رجل يُقال له يهوذا وهو الذى دلّهم عليه ، فصلبوه .

يقول أبو العلاء المعرى فى قصيدة اللزوميات :

فعجباً للمسيح بين أُناس ... وإلى غير والد نسبوه
أسلمتهُ إلى اليهود النصارى ... وأقرّوا بأنهم صلبوه
يُشْفق الحازم اللبيب على ... الطفل إذا ما لدّاته ضربوه
فإذا كان ما يقولون فى عيسى ... صحيحاً فأين كان أبوه
كيف خلّى وليده للأعادى ... أم يظنون أنهم غلبوه

وقال مقاتل بن حيّان : جمع عيسى عليه السلام الحواريين فى تلك الليلة ، وأوصاهم وقال : ليكفُرنّ بى واحد منكم ويبيعنى بدراهم . ثم تفرّقوا ودخل خوخة وجاءت اليهود تطلبه، فدلهم عليه بعض من كان معه ، وأعطوه ثلاثين درهماً ، فألقى الله عليه شَبَه عيسى ، فصلبوه .

---

(١) خباء صغير .

وقال مجاهد : دخل عيسى عليه السلام الخوخة ، ومعه سبعة عشر من الحواريين ، فأحاط اليهود بهم ، فقال عيسى عليه السلام : من يبيع نفسه منكم بالجنّة

قالوا : وكيف ؟ قال : فيُلْقى عليه شبهى ، فيُصلب ، فيكون رفيقى فى الجنّة فقال شاب منهم : أنا ·

فألقى الله عليه شبهه ، فقُتل ، ورُفع عيسى عليه السلام ·

وقد اختلفوا فى اسم المصلوب الذى دلَّ عليه على أقوال : أحدها يهودى من اليهود ، والثانى من الحواريين واسمه يودس ، والثالث شمعون ، وقيل جرجس ، وكان قد آمن بعيسى عليه السلام · ويُقال له ابن العجوز ، وقيل إنه ندم على ما فعل فخنق نفسه وصُلب ·

وقال ابن عباس : رُفع إلى السماءِ لثلاث ساعات مضين من الليل ، وقيل من النهار ، وكُسى الريش ، ونُزعت منه لذة المطعم والمشرب ، فصار إنسياً مَلَكياً سماوياً أرضياً ·

وقال مقاتل : لا خلاف بين النصارى واليهود أن عيسى عليه السلام صُلب ، ولا خلاف بين المسلمين أن المصلوب غير عيسى عليه السلام · قال الله تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾ (النساء : ١٥٧) ·

وقال ابن أبى نجيح : جاءت مريم بعد أيام إلى الخشبة ، ومعها امرأة كان عيسى عليه السلام دعا لولدها فشُفى من المرض ، فوقفتا تبكيان ، فجاءهما عيسى عليه السلام ، فقال : ما لكما تبكيان ؟ فقالتا : عليك · فقال : إن الله رفعنى إليه ، ولم يصبنى إلا خير ، وإن هذا شىء شُبِّه لهم ·

وقال كعب : وجد فى بعض الكتب أن الله تعالى قال بعد سبعة أيام : يا عيسى انزل إلى مريم المجدلانية - نسبها إلى قرية بالجبل يُقال لها المجدل - فإنه لم يبك عليك أحدٌ بكاءها ، ولم يحزن عليك حُزنها ، ثم اجمع الحواريين وبثّهم فى الأرض دعاةً إلىَّ ، فنزل على جبل بيت المقدس ، فاشتعل نوراً ، وجمع الحواريين ، وبثّهم فى الأرض ، ثم رفعه الله إليه ، وتلك التى يُدخّنُ فيها النصارى ·

واختلفوا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥) على أقوال ، أحدهما : إنى قابضك ورافعك إلىَّ من غير

موت ، ودليله قوله تعالى : ﴿ فلمّا توفّيتنى ﴾ (المائدة ١١٧) أى رفعتنى وأنا حيٌّ وافياً لم ينالوا منى شيئاً .

والثانى : أن معناه : إنى مُنيمك ، من النوم ، من قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ (الأنعام : ٦٠) لأن النوم أخو الموت . والثالث : إنى مُميتك .

قال ابن عباس : توفّاه ثلاث ساعات من نهار ، ثم أحياه ، ورفعه إليه . والرابع : أن فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، ومعناه : إنى رافعك إلىَّ ومطَهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . والخامس : أنى متوفيك عن حظوظ نفسك وشهواتك ، لأن عيسى عليه السلام كان فى الدنيا بهذه المثابة . وقال ابن أبى نجيح : كان عيسى عليه السلام على طور سيناء ، وعليه مدرعة شعر فهبت ريح ، فهرول ، فرفعه الله إليه .

محاورة الله تعالى لعيسى عليه السلام

قوله تعالى ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأُمى إلهين من دون الله ﴾ (المائدة :١١٦) . قال السّدى : قال له ذلك عند رفعه إليه ، لإن إذ للماضى . وقال غيره يقول له يوم القيامة ، وفائدة هذا السؤال ، مع أنَّ الله عالم بأنه ما قال ، أنَّ جماعة من النصارى ادّعوا أن عيسى عليه السلام أمرهم بعبادته ، فأراد تكذيبهم فلفظ الآية استفهام والمعنى توبيخ لمن ادعى عليه أنه قال ذلك . وقيل إنه أراد اعتراف عيسى بالعبودية ليظهر ذلّه وخضوعه ، والإله لا يكون خاضعاً .

وقيل إنه أراد إظهار فصاحة عيسى عليه السلام ، وأنه مؤيد بروح القدس ، لأنه أجاب بأحسن الأجوبة . فقوله : « سبحانك » ومعناه تقدَّست وتنزَّهت عن أن يقول مثلى هذا ، فأنت المعبود وأنا العبد . قوله : ﴿ما يكون لى أن أقوال ما ليس لى بحق ﴾ معناه قد علمت أني لا ينبغي لي ذلك ، فما قلت . قوله : « إن كنت قلته فقد علمتَهُ » لأنه علم أنه ما قال . قوله « تعلمُ مَا فى نفسى ولا أعلمُ مَا فى نفسك » لأن الله تعالى مُطّلع على سرِّه وضميره وقد علم أنه ما قال .

﴿ إنك أنت علاّم الغيوب ﴾ (المائدة : ١١٦) لأنه إذا كان عالماً للغيب

لم يخفَ عليه شيء . قوله : « ما قُلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبُدُوا الله ربى وربكم وكنتُ عليهم شهيداً » لأنه أمرهم بعبادة الله ، فقد اعترف بالعبودية ، والعبد لا يكون إلها « وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم » لأنه لما كان فيهم ما ادعوا عليه ذلك . قوله : ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ﴾ (المائدة : ١١٧) أى رفعتنى وما زلت معترفاً لك بالألوهية إلى حين وفاتى . إنك تُشهد الأنبياء وتعلمهم وأنت مُطّلع على البواطن والظواهر ، والشهيد لا يستر عنه شيء .

وقال مجاهد : بقى أربعين عاماً وجهه بمنزلة الميت .

فإن قيل : فالنصارى لا تتخذ مريم إلهــاً ، فكيف قال إلهين من دون الله ؟ فالجواب : أنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً ألزمهم ذلك من حيث البعضية ، فصاروا بمثابة من قاله .

ومعنى قوله توفيتنى ، يعنى بالرفع إلى السماء ، وقيل معناه غيبتنى ، وقيل معناه أمتّنى عند انتهاء أجلى . ثم أدركته رقّةٌ عليهم ، فقال : ﴿ إن تُعذّبهم فإنهم عبادُك ﴾ أى تُميتهم على الكفر ،و ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ بتوبتهـم ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (المائدة : ١١٨) فى قضائك ، فلا ينبغى لأحد أن يعترض عليك . قوله تعالى ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وهذا خاص لعيسى عليه السلام . وقيل إنه على العموم فى حق كل صادق .

نزول عيسى عليه السلام

أخرج الإمام أحمد ﷺ فى المسند[1] ، قال : وإنه نازل على أُمتى وخليفتى فيهم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع الخَلْق إلى الحُمرة والبياض سبط الشعر ، كأنّ شعره يقطر وإن لم يُصبه بلل . وفى رواية : خرج من ديمـاس بين مخصرتين ، يدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض المال ، وليسلكن الرّوحاء حاجاً أو مُعتمراً ، أو ملبّياً بهما جميعاً ، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها ، ويهلك مسيح الضلالة الدّجال الكذّاب ، ويقع فى الأرض الأمن ، حتى ترتع الأسود مع

---

(١) صحيح البخارى ، أنبياء ص ٤٨ ، وصحيح مسلم ، فضائل ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ومسند أحمد ، ج ٢ ص ٤٦٣ - ٥٤١ .

الإبل ، والنُمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الغلمان بالحيّات ، ولا يضرّ بعضهم بعضاً ٠

ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، وفى رواية أربعاً وعشرين حجّة ٠ ثُم يتزوج ويُولد له ، ثم يتوفى ، ويصلى عليه المسلمون ، وفى رواية : ويدفنوه فى مسجدى أو حجرتى ٠

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا تزال طائفة من أُمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : [تعال] صلّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أُمراء ، تكرِمَة من الله لهذه الأُمة ٠

قال الشيخ أبو الفرج الجوزى رحمه الله : إذا نزل عيسى ابن مريم اجتمع بصاحب الزمان ، فيحضرون وقت الصلاة ، فيقول صاحب الزمــان له تقدَّم ، فيقول له عيسى عليه السلام: أنت أولى ، فيتقدم صاحب الزمان ٠ فلو تقدم عليه عيسى لكان ناسخاً لشرعنا ٠ وقد قال نبيّنا ﷺ : لو كان عيسى وموسى حيّين لما وسعهما إلا اتباعي ٠

فامتناع عيسى عليه السلام لئلا يتدنّس وجه « لا نبى بعدى » بغبار الشبهة والدليل على التبعية قائمة أنه ينكح على ما فى الحديث ، ويولد له ، لأنه ضيف ، والضيف يتبع أوامر المضيف : « تناكحوا تناسلوا » الحديث ٠

ولمسلم عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ من حديث فى أمارات الساعة ، وفيه : فبينا هو كذلك إذ بعث الله عيسى ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين ، واضعـاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحلُّ بكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ ، فيقتله ٠

ثم يأتى عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنّة ٠ فبينا هو كذلك ، إذ أوحى الله إلى عيسى : إنى قد أخرجت عباداً لى ، لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرّز عبادى إلى الطور ٠

وقد أخرج الإمام أحمد ﷺ عن جابر حديثاً طويلاً فى الدجال ، وفيه ومعه جبال من خبز ، ونهران ، وشياطين تكلّمُ الناسَ ، ويأمر السّماء فتمطر ،

ويقتل نفساً ثم يحييها ، لا يُسلَّط على غيرهم من الناس . وقد حرَّم الله عليه مكة والمدينة ، والملائكة قائمة على أبوابهما . ويفرّ المسلمون إلى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم ، فيحصرهم فيه ، ويشتدّ حصارهم ، فينزل عيسى عليه السلام ، فينادى وقت السحر : أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث ، فينطلقون معه ويقولون : هذا رجل جنّى . فتُقام الصلاة ، فيُقال لعيسى : تَقدَّم يا روح الله ، فيقول : ليتقدَّم إمامكم فيصلى بكم ، فإذا صلّوا صلاة الصبح خرجوا إليه . فحين يراه الكذّاب ينماث كما ينماث الملح فى الماء فيمشى إليه فيقتله، حتى إن الشجر والحجر لينادى : يا روح الله هذا يهودى ، فلا يترك أحداً ممن كان يتبعه إلا قتله .

وقيل للحسين بن الفضيل : هل تجد نزول عيسى عليه السـلام فى القرآن ؟ قال : نعم ، قوله تعالى ، « وكهلا » وهو لم يكتهل فى الدنيا ، فصار معناه : وكهلاً بعد نزوله .

وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : كيف تهلك أُمة أنا فى أولها ، والمهدىّ من أهل بيتى فى أوسطها ، وعيسى فى آخرها ؟

وأخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : نظرت فى التوراة صفة رسول الله ﷺ وعيسى ابن مريم وأنه يُدفن معه . وقال البخارى : هذا لا يصحُّ عندى . وفى إسناد هذا الحديث أبو مودود المدنى لا يُتابع عليه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يُدفن عيسى عليه السلام عند باب حجرة النبى ﷺ .

وفاة مريم عليها السلام

توفيت مريم عليها السلام بعد عيسى عليه السلام بأربع سنين . وكان سنُّها يوم ماتت نيفاً وخمسين سنة . وقيل أقل من ذلك . ودُفنت بالحسمانية شرقى بيت المقدس عند قبر داود عليه السلام . وقيل إنها توفيت قبل رفعه . فروى أن عيسى عليه السلام كان لا يأكل إلا من غزلها إذا لم يكن زمن اللقاط[1] . وكانا يصومان الدهر . فجاء ليلة عند الإفطار وهى نائمة قد ماتت ، فناداها : يا أُمّاه ، أفطر الصائمون ، أمَا آن لكِ أن تفطرى ؟ فأوحى

---

(1) زمن الحصاد .

الله إليه قد توفيت ، فسلها تجبك ، فقال : يا أماه · فقالت : لبيك يا بنى · فقال : كيف وجدت الموت ؟

فقالت : يا بنيَّ ، والله لو وقعتْ عليَّ جبال الدنيا لكان أهونَ على من الموت والأول أشهر ·

ولما رُفع عيسى عليه السلام انقطع الوحى بعده ، ووقعت الفترة حتى بُعث نبيّنا ﷺ · وقال وهب : كان بين عيسى عليه السلام ونبيّنا ﷺ أربعة من الأنبياء ، ثلاثة منهم ذُكروا فى قوله تعالى : ﴿ إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهم فعزَّزنا بثالث ﴾ (يس : ١٤) والرابع خالد بن سنان العبسى ·

ومذهب النصارى أنّ من هبوط آدم عليه السلام إلى رفع عيسى عليه السلام خمسة آلاف سنة وخمسائة واثنتين وثلاثين سنة · والله أعلم بالصواب ·

تكريم الله لمريم عليها السلام
فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية

ومريم اسم أعجمى غير منصرف للعجمة والعلمية والتأنيث ·

وقيل معناه بالعبرانى : خادمة الله ، وقيل : أَمَةُ الله · وقيل : المُحرَّرة · وشذَّ بعضهم فقال : عربى معناه مَرَتْ ورامتْ ، أى حَلَبَتْ وطَلَبت ، أى استخرجت طاعة الله وطلبت مرضاه الله · وقيل على أنها مرَّت على يمّ الطَّاعة مرور السفينة والحوت باليم ·

ومن فضائلها : إتيان المَلَك بفاكهة الجنّة لأجلها ، ونيلها فى الشتاء فاكهة الصيف ، وتكليم الملائكة لها ، وإتيان جبريل إليها ، وولادتها لعيسى روح الله وكلمته من غير مسّ الرجال ، وبيان براءتها على لسان الطفل الرضيع ، وتساقط الرُّطب الجنى عليها من النخل اليابس ، وإجراء النهر السَّرىّ من تحت قدميها، وتفضيلها على نساء العالمين، وتطهيرها من الحيض والعيب والعصيان ، وكفالة زكريا شيخ الأنبياء لها ، وقبول الحق تعالى إيَّاها بالإنعام والإحسان ، وتربيتها بفنون الإكرام والامتنان ، وتكرار ذكرها بالمدح فى نصّ القرآن ·

ودعاها الله باثنى عشر اسماً منبئة بفضلها أتم البيان ، دعاها بالمحرّرة ﴿ ما فى بطنى مُحرّراً ﴾ (آل عمران : ٣٥) ، ومُصطفاة ﴿ إن الله

اصطفاك ﴾ (آل عمران : ٤٢) ، ومطهَّرة ﴿ وطهَّرك ﴾ (آل عمران : ٤٢) ، وقانتة ﴿وكانت من القانتين ﴾ (التحريم : ١٢) ، وساجدة وراكعة ﴿ واسجدى واركعى ﴾ ، ومحصنة ﴿ التى أحصنت فرْجَها ﴾ ، وآية ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ (الأنبياء : ٩١) ، وأمٌّ وصدّيقة ﴿ وأمه صدّيقة ﴾ (المائدة : ٧٥) ، ووالدةٌ ﴿ وبَرَّاً بوالدتى ﴾ (مريم : ٣٢) ، ومَرْيم وبنت عمران ﴿ ومرْيَمَ ابنت عِمْرَان الَّتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم : آية ١٢) .

وكذلك حينما يتحدث القرآن عن أُمهات المؤمنين نساء النبى عليه الصلاة والسلام لم يفصح عن واحدة منهن باسمها الخاص . ولكن القرآن يذكر اسم العذراء الخاص « مريم » دائماً ، حتى بلغ ذلك أربعة وثلاثين مرة منثورة فى سورة « البقرة » و « آل عمران » و « النساء » و « المائدة » و « الأنبياء » و« المؤمنون » . بل إن باسمها سورة خاصة هى سورة « مريم » والقصص عن مريم فى هذه السورة يشغل تسع عشرة آية متوالية .

ونذكر بعض المواضع من القرآن: ﴿ وإنى سميتُها مريم ﴾ (آل عمران : ٣٦) ، ﴿ يا مريم أنَّى لكِ هذا ﴾ (آل عمران : ٣٧) ، ﴿ يا مريم إنَّ الله اصطفاكِ وطهَّركِ ﴾ (آل عمران : ٤٢) ، ﴿ يا مريم اقنتى لربِّك ﴾ (سورة آل عمران: آية ٤٣) ، ﴿ يا مريم إنَّ الله يبشّرُكِ ﴾ (آل عمران: ٤٥) ، ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ (الآيتان : ١١٠، ١١٦ سورة المائدة) ، ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾ (سورة مريم: ٣٤) ، ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾ (سورة مريم : ١٦) ، ﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ (مريم : ٢٧) ، ﴿ وجعلنا ابن مريم وأُمَّه آية ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ٥٠) .

كما نجد بجانب هذه التصريحات بالاسم الكريم إشارات أخرى للعذراء بأدوات الخطاب أو الغيبة أو الكنايات المادحة . كقول القرآن ﴿ فناداها من تحتها ألاّ تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهُزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطَباً جنياً . فكُلى واشربى وقرّى عينا ﴾ (مريم : ٢٤ ، ٢٥) ، وقوله عز وجل : ﴿ يا أُخت هارون ما كانَ أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا ﴾

ونُجمل الحديث بقولنا إن القرآن - كتاب الله المُبين ودستور المسلمين - يرى فى مريم أم المسيح عليهما السلام آية فى اصطفائها ... آية فى ميلادها ... آية فى اختلائها فى الهيكل ... آية فى مولدها

للمسيح .... آية فى طهارتها وبتوليتها ... وآية فى شخصيتها . كقول القرآن : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكُتبه وكانت من القانتين ﴾ (التحريم آية ١٢) ، وقوله أيضاً : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ (الأنبياء : آية ٩١) .

وبهذه الفضائل كلها استحقت مريم عليها السلام أن تكون كما أرادها الله سيدة نساء العالمين فى الجنّة .. قال تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (آل عمران :الآية ٤٢) .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وأنشد بعضهم :

توكل على الرحمن فى كل حالة ... ولا تترك الخلاّق فى كثرة الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزّى إليك الجذع تسّاقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها ... جنتهُ ولكن كلُّ أمرٍ له سبب

الحديث الشريف

وأمّا ما يتصل بالسُّنة النبوية الشريفة فحديث روته أم المؤمنين أم سَلَمَة وأخرجه صاحب تيسير الوصول إلى جامع الأُصول من أحاديث الرسول ، وفيه تقول أُم سلمة ﵂ : دعا رسول الله ﷺ فاطمة ﵂ عام الفتح فناجاها فبكت ثم حدثها فضحكت ، فلما توفى رسول الله ﷺ ، سألتها أم سلمة عن بكائها وضحكها . فقالت فاطمة ﵂ : أخبرنى رسول الله ﷺ أنه يموت فبكيت ، ثم أخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنّة إلا مريم ابنة عمران فَضَحِكْت .

وروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنّة بعد مريم فاطمة ، وخديجة وامرأة فرعون » .

* * *

السيدة آسية بنت مزاحم

(امرأة فرعون) ، التى أحسنت فاختارت جوار الله ، فمنّ عليها بالرضوان ، وأنعم عليها بقصر فى أعلى غرف الجنات . قال تعالى :

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ (سورة التحريم : آية ١١) .

روى عكرمة عن ابن عباس ﷺ ، موقوفاً عليه قال : كانت آسية بنت مزاحم ، زوجة فرعون مصر ، من بنى إسرائيل سبط موسى ، وهى من بيت النبوة وسليلة المجد ، وقيل كانت ابنة عمه تزوجها بعد أخيه وذلك أوفق وقيل كانت عمته ، واختُلف فى اسم الفرعون فيزعمون أنه رمسيس الثانى وقيل ابنه « منفتاح » .

وقال وهب : فرعون موسى من القبط عاش أربعمائة سنة وكان من أخبث الفراعنة وذلك لأن فرعون يوسف لم يكن يؤذى بنى إسرائيل وكان يُحسن إليهم ويكرمهم ، وفرعون موسى عذّبهم بأنواع العذاب . وقال الجوهرى : فرعون مَلِك مصر من الفراعنة ، وكل عاتٍ [مُتمرّد] فرعون، والعُتاة الفراعنة ، وهو ذو فرعنةٍ ، أى دهاء ومكر ، وقال ابن الجواليقى :

والفرعنة مشتقة من فرعون . واختلفوا فى صفته ، قال وهب : كان قصيراً ، ولحيته طويلة . وقيل كان طوله قدر ذراع ، وقيل كان طوالاً والحقيقة أنه لم يكن طويلاً بائن الطول ، ولا قصيراً بائن القصر كما ادَّعى ولكنه كان متوسط الطول مثل عامَّة المصريين .

رؤيا فرعون ومولد موسى ورعاية آسية له

قال علماء السير كوهب بن منبه والكلبى والسدّى وغيرهم[1] : رأى فرعون فى منامه كأن ناراً أقبلت من البيت المقدس فأحرقت بيوت مصر وقصر فرعون والقبط فلم يبق منهم أحد ، فهاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة ، وأخبرهم بما رأى ، فنظروا فى علومهم وقالوا : يُولد مولود فى بنى إسرائيل يكون هلاكك وهلاك قومك على يده وذكر صاحب التبصرة : أن الكهنة أخبروا فرعون وقالوا : يُولد مولود فى بنى إسرائيل يكون هلاكك على يده ، ولم يذكر المنام وهو أصح ، لأن موسى إنما وُلد بمصر لا بيت المقدس . فالنار التى أحرقت بيوت مصر إنما خرجت من مصر .

قالوا : فأمر فرعون بذبح كل مولود فى بنى إسرائيل ، ووكّل الشُّرَط مع القوابل كُلّما وُلد مولود ذبحوه ، وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل ، فقال رؤساء القبط لفرعون : قد أمرت بذبح الأبناء ، وقد أسرع الموت فى المشايخ ، فإن دُمت على هذا لم يبق لنا من يخدمنا . فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة ، فُولدَ هارون قبل موسى فى السنة التى لم يُذبح فيها ، ووُلد موسى فى السنة التى يُذبح فيها ، قيل ذبح من بنى إسرائيل سبعين ألفاً .

تقول الروايات أن أُم موسى ، واسمها « يوحانت »[2] من نسل لاوى ابن يعقوب ، حملت به ولم تظهر عليها علامات الحمل من كبر البطن ، أو ما يُشير إلى أنها حامل والقابلة التى ساعدتها فى الولادة ، كانت مُصاحبة لها وبينهما صداقة ومودة ، وأنها عند ولادة موسى رأت نوراً بين عينيه ، فتستّرت هى كذلك وعملت على حفظ الوليد .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ١ : ص ٤٤٦ .
(٢) وفى رواية أن اسمها « يوكابد »

وعند خروج القابلة من منزل أُم موسى ، تهافتت عليها العيون ، وجاء الشُّرَط إليها مُتسائلين عن عمل القابلة عندها ، فأخبرتهم أنها صديقتها أتت لزيارتها ، فلما أبصرت بهم خافت عليه منهم ، فألقته فى التّنور وهو يُسْجَر[1] ورأوا أُم موسى ولم يتغير لها لون ، ولم يكن عليها علامات الولادة . فلم يظهر لها لبن فصدّقوها حين قالت عن القابلة : « إنها مُصافية جاءتنى زائرة » .

فانصرفوا عنها وقد تذكرت وليدها ، ولم تدْرِ فى أى مكان وضعته ، فسألت أُخته عنه ، فسمعت بكاءه فى التّنور ولم تمسسه نار ، فأتت به ومكث فى حضانتها زمناً ، ولما اشتدّ فرعون فى طلب الأطفال وتقتيلهم خافت عليه منه ، فألهمها الله أن صنعت تابوتاً من البردى – وقيل إنما صنعه رجل مؤمن من آل فرعون – فأوحى الله إلى أُم موسى أن أقذفيه فى التابوت ثم أقذفيه فى اليمّ – يعنى النيل – ففعلت ذلك بعد أن أرضعته .

فسار التابوت فى الماء ، وكانت أُم موسى قد رَفَتْ التابوت ، ولفّت موسى فى القطن ، فساقه القَدَر إلى نهر يأخذ من النيل إلى دار فرعون ، ووافق جلوس فرعون فى ذلك الوقت على البِرْكة ، ومعه آسية بنت مُزاحم ، فدخل التابوت إلى البِركة ، فقال فرعون ، للخدم والجوارى : أخرجوه ، فأخرجوه ، فاجتهد فرعون فى فتحه . فلم يكن ذلك سهلاً ميسوراً ، ثم أقبلت امرأته آسية ، فعالجته ففتحته ، فرأت نوراً بين عينى الطفل ، فبهرها حُسْنه ، ووقع فى قبلها حُبه والعطف عليه ، فلما رأى فرعون الطفل هو ووزيره هامان ، لحظا عليه أنه كنعانى الوجه ، إسرائيلى السحنة ، فهمّ بقتله ، فقالت له آسية امرأته : ﴿ قرّت عين لى ولك لا تقتلوه ﴾ (القصص :آية ٩)، إنى ألمحُ فيه مخايل النجابة واليُمن والبَرَكة . وأرى أنه سيكون لنا سلوى وقُرَّة عين قال الطبرى : ذُكر أن آسية لما قالت هذا القول لفرعون قال لها : أمّا لك فنعم ، وأما لى فليس بقرّة عين ، وقال ابن عباس : لو قال قُرَّة عين لى لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى . وقد خاطبته آسية بما يُناسب من التعظيم كما يُخاطب الملوك ، فخاطبته بلفظ الجمع ليساعدها فيما تُريد ﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾ (القصص آية ٩) واستطردت السيدة آسية فى

---

(١) فيه النار .

مخاطبة زوجها فرعون وهى تتلطّف له وتسترضيه قائلة له : عسى أن ينفعنا فى الكبر ، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا · قال المُفسرون : وكانت لا تلد، وقيل : كانت لا تلد إلا البنات فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها · قال تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته على يديه وبسببه ·

وقيل لما فُتح التابوت رآه فرعون ، فقال : عبرانىّ ، كيف أخطأه الذبح وأمر السنة ؟

قالت آسية : هذا أكبر من سنة ، فدَعه عسى أن يكون ﴿ قُرَّة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا ﴾ وكان لا يولد لفرعون إلا البنات ، وأحبَّه حبا شديداً بحيث لم يصبر عنه لحظة · قال ابن عباس فذلك قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ (طه : ٣٩) قال قتادة : كان فى عينه ملاحة ما رآه أحداً إلاَّ وأحبه ·

وقال الضحاك : لما ألقته أُمه فى النار خافت ، فلما ألقته فى اليم ندمت وجزعت ، قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أُمِّ موسى فارغاً ﴾ (القصص : ١٠) أى خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى شفقة عليه · وقال ابن عباس جاءها إبليس فقال : كرهت أن يقتله فرعون فيكون لك أجره وثوابه ، وتوليت أنت قتله فألقيته فى اليمّ ؟! فخافت ، فربط الله على قلبها ، « وقالت لأخته قُصّيه » أى اتبعى آثاره ، فدخلت دار فرعون فوجدته عند آسية وقد جمعت له المراضع فلم يقبل ثدياً ، فقالت مريم[١] : هل أدلكم على من يكفله أى من يرضعه ويضمه إليه ؟

فقالت آسية : نعم ، فأرسلت إلى أُمّه فجاءت فأعطته ثديها فقَبِله وشرب ونام فذلك قوله تعالى : ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ (طه : ٤٠) وفى مصحف أبىّ بن كعب :فرددناك إلى أُمّك ﴿ كى تقرَّ عينها ﴾ (طه : ٤٠) بلقائك · فلما تمَّ رضاعُه ردَّته إلى دار فرعون ، فأخذه يوماً فى حِجْره ، فمدَّ بلحيته (عبث بها) ·

---

(١) أخت موسى ·

فقال فرعون : علىَّ بالذابح ، فقالت آسية : إنمَّا هو صبى لا عقل له ، وأحضرت ياقوتاً وجمراً ، فأخذ جمرة فوضعها فى فيه ، فاحترق لسانه ، فذلك قوله تعالى ﴿ واحلل عقدةً من لسانى · يفقهوا قولى ﴾ (طه:٢٧ – ٢٨)· فإن قيل فأنَّى اشتبه بالنار ؟ يوم التنور أُلقى فيها فلم تحرق لسانه ؟ فالجواب : أنه قال لفرعون يوماً : « أبى » فعوقب لسانه ولم تُعاقب يده مدَّت بلحية فرعون ، ولهذا ظهرت المعــجزة فى اليد دون اللســان ، قال تعالى : ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ (طه : ٢٢) ·

وروى الوالبى عن ابن عباس قال : ذبح فرعون فى طلب موسى تسعين ألفاً من بنى إسرائيل ، وكانت القابلة التى وكلها بأمّ موسى مصافية لها ، فلما ولد موسى ووقع على الأرض لاح نـورٌ بين عينيه ، فهالها وهابته ، فقالت لأمّه : احفظى ولدك ، فهذا هو المطلوب الذى أُخْبرنا بأنه عدونا لأنها كانت قابلته ، وهجم عليها الشرط والتنور يُسْجَر فلفته فى خرقة ، وألقته فيه ، وغشى على أُمه من الخوف ، وخرج الشرط فقالت أمه لأخته – واسمهـا مريم ، وقيل كانت له أُخت أخرى يقال لها كلثم[1] – أين الصبى ؟ فقالت : لا أعلم ، فسمعت بكاءَه من التّنور ، فألهمها الله أن تصنع له تابوتاً ، فاشترته من نجار ، فقال لها : ما الذى تصنعين به ؟ فقالت : أضع فيه ابناً أخاف عليه كيد فرعون ، فمضى النجار ليغمز عليها فأخرسه الله ، فجعل يُشير بيده فلم يفهموا إشارته ، ثم آمن بعد ذلك بموسى · فألقته فى اليم ، وكانت لفرعون ابنة برصاء قد أعيا الأطباء دواؤها ، وقالت الكهنة : لا تبرأ إلا من قبل إنسان يوجد فى البحر عند شروق الشمس ، فى وقت كذا وكذا ، فاتفق جلوس فرعون فى تلك الساعة على جانب النيل ، وعنده ابنته البرصاء وآسية ، وإذا بالتابوت يضربه الموج وقد تعلّق بالشجرة ، فابتدروه بالسفن فأخذوه ، فعالجوه فلم يقدروا على فتحه ، ودَنت منه آسية ففتحته ، فلاَحَ نور عظيم من بين عينيه ، وقد جعل الله رزقه فى إبهامه وهو يمصُّ فيدرُّ لبناً ، وأخذت ابنه فرعون من ريقه فلطّخت به برصها فبرئت من وقتها ، فقبلته وضمَّته إلى صدرها وفرعون ينظر ، فقال الغواة من قومه : إنَّا نظن أن هذا المولود الذى

(١) وفى لفظ (كلثوم) ·

يزيل ملكك ، وإنهم خافوا عليه منك فألقوه فى البحر ، فاقتله ، فهمَّ بقتله فمنعته آسيـة وقالت : ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ ، فوهبه لهـا ، وقال : أما أنا فلا حاجة لى فيه · قال ابن عباس : لو قال فرعون مثل ما قالت آسية ، « قُرَّة عين لى » لهداه الله كما هداها ، ولكن أحبَّ الله أن يُجرى فيه سابق علمه ·

وقد سمتَّه آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون « موسى » واللفظ مكوّن من جزءَين « مو » وهو الماء ، « شا » وهو الشجر بالقبطية لأنهم وجدوا موسى بين الماء والشجر · وذكر الرواة أن الجوارى كُن يغتسلن بالبِركة وكان فرعون يجلس إلى جوار البِركة للنزهة والترويح عن النفس بعد يوم حافل قضاه فى مملكته وكانت تجلس إلى جواره سيّدة القصر ، زوجته وابنة عمه آسية بنت مُزاحم ومعهم ابنة برصاء قد أعيا الأطباء دواؤها ، ويقول المُفسّرون إن الجوارى التقطن التابوت من البحر وكان مُغْلقاً حسبوا أن به كنزاً ، فلم يتجـاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى آسية امرأة فرعون ، فعالجته وفتحته ، وهالها أن رأت طفلاً جميلاً يلمع من بين عينيه نور عظيم فأحبته وتمنّته ابناً لها ؛ ولم يكن لهـا ذريّة من الذكور فاستوهبته من فرعون فوهبه لهـا · عندئذ قالت آسية للذبّاحين : انصرفوا ، فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل ·

واستجلبت له آسية المراضع ، فنفر منهن جميعاً ولم يقبل ثدياً ، مما جعلها حَيْرى فى أمره ·

لقد طال انتظار آسية للولد ، وها هى قد كبرت سنها ولم يكن لها ولد ذكر يرث مُلْكَ فرعون على البلاد والعباد !

وكانت آسية فى قصرها مع فرعون الذى أحبّهـا وأحبته ؛ تعيش فى رخاء ، وتحيا حياة الترف والنعيم ؛ فلم يكن يُكدّر صفوها إلاَّ أن يكون لها ولد ذكر تقرُّ به عينها وتؤنس به وحدتها ، فلما جاء الوليد وهو موسى وكان جميلاً بهىَّ الطَّلعة تعلَّق قلبها به وأحبَّته حُبَّ الأم الرؤوم لولدها ، وضاعف من حُبها له أن ابنتها البرصاء أخذت من ريقه فمسحت به برصها فشفيت من وقتها ، فضمته إلى صدرها وقبّلته ·

لقد ابتسم القدر لآسية فوهبها ذلك الغلام الجميل بعد طول حرمان ؛ وها هو الوليد - على غير عادة الأطفال - يرفض ثدى المُرضعات اللاتى تقدَّمن لإرضاعه ، فهل تتركه يقضى نحبه ؟ نعم لقد خافت عليه آسية من الموت وأضاف عليها موقف الوليد ورفضه وإباؤه مزيداً من الحيرة واللهفة !!

وبقلب الأم الوالهة بعثت المُنادين إلى السوق لكى تستجلب مزيداً من المُرضعات لوليدها الذى أنعم الله به عليها .

وكانت أُخت موسى - كلثم - كما جاء فى رواية ابن عباس تتبع أثره ، فرأت القوم مجتمعين وإنهم ليجَدُّون فى طلب من يكفل موسى ويقوم على رعايته وهو ابن ملك .

هُنا تقدمت أخته من القوم وقالت كما قص علينا القرآن ﴿ هل أدلُّكم على أَهلِ بيْت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ (القصص : ١٢) .

قال ابن عباس : لما قالت كلثم أُخت موسى ذلك قالوا لها : ما يُدريك بنُصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبةً فى صِهْر الملك ورجاء منفعته ، فأطلقوها ، وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أُمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى آسية يُعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تُحسن إليها فأبت عليها وقالت : إنَّ لى بعلاً وأولاداً ولست أقدر على هذا ، إلاَّ أن تُرسليه معى فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجْرت عليها النفقات والكساوى والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحْلِها وقد جمع الله شمله بشملها .

فذلك قولــه تعــالى : ﴿ فرددنــاه إلى أُمّه كى تقرَّ عينهـــا ولا تحزن ﴾ (القصص : ١٣) . وفى الحديث الشريف : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أُم موسى تُرضع ولدها وتأخذ أجرها » .

فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى : أُريد أن أرى ابنى موسى ، فوعدتها يوماً أن تراه فيه ؛ فقالت آسية لحواضنها وجواريها وقهارمتها[١] : لا يبقين أحد منكم إلاَّ استقبل ابنى بهَدِيَّة وكرامة ، ليُرَى ذلك ، وأنا باعثة أمينة

(١) القهرمانة من النساء الخاصة بآسية امرأة فرعون .

تُحصى ما يصنع كل إنسان محرم ، فلم تزل الهدايا والتحف والإكراميات تستقبله من حين خرج من بيت أُمه إلى أن دخل قصر آسية امرأة فرعون ، فلما دخل عليها بجلّته وأكرمته وفرحت به ،وأعجبها ما رأت من حُسْن أثرها عليه ، وامتدّ أثر حبها للوليد إلى فرعون فأحبه واتخذه ولداً فدُعى ابن فرعون .

وذات يوم ، بينما هى ترقّصه وتلعب به إذ ناولته فرعون وقالت : خذه « قُرّة عين لى ولك » قال فرعون : هو قرّة عين لك وليس لى[1] وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : « والذى يُحْلَف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قُرّة عين كما أقرّت به لهداه الله به كما هدى به امرأته ولكن الله حرمه من ذلك » .

فلما تناوله فرعون وضمّه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها !

فقال أحد الكهنة : إنّا نظن أن هذا هو الذى سيصرعك ويعلوك .

فقال فرعون : علىّ بالذبّاحين .

فقالت آسية : ما بَدَا لك من هذا الصبى الذى وهبته لى ؟

قال : ألا ترين ! وأشــار إلى أحد الكهنة ؛ يزعم أنه سيصرعنى ويعلونى !

وهنا تظهر آسية وقد استبدّت بها عاطفة الأمومة نحو ولدها موسى ، وبلغ منها الإشفاق والخوف مُنتهاه . فاتجهت إلى زوجها فرعون ، تستلطفه وتسترضيه ، وقد عرفت مكانها من قلبه وهى الزوجة المُخلصة البارّة الوفية التى تعرف قدر زوجها ومكانته فخاطبته مخاطبة الملوك بلغة الجمع ، وتقدم النصح على استحياء بأسلوب الرجاء ، فتخرج الكلمات من فيها مُمتلئة رقّة وعذوبة وحناناً ، فتصادف من قلب زوجها موقع الظمآن من الماء ، فتلقى قبولاً ، ويستمع لكلامها ويرفض نصيحة الكهنة .قالت آسية لفرعون : « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، إنما هو صبى لا يعقل ؛ وإنما صنع هذا من صباه ، وقد علمت أنه ليس فى أهل مصر أحلى منى ، أنا أضع له حُلِيّاً من الياقوت ، وأضع له جمراً ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ،

---

(١) تاريخ الملوك للطبرى قصة موسى عليه السلام .

وإن أخذ الجمر فإنما هو صبى . فأتت بجمرتين ولؤلؤتين ، فجاء جبريل عليه السلام فطرح فى يده جمرة فوضعها موسى فى فيه فأحرق لسانه ، فذلك قوله تعالى : « واحلل عُقدةً من لسانى * يفقهوا قولى » . وهكذا نشأ موسى فى عزّ ومنعَة فى كنف السيدة الكريمة آسية بنت مُزاحم ، ولحظته بعين عنايتها ورعايتها ، فكان موسى فى قصر فرعون بمثابة ابن الملك ، وفوق هذا أُوتى الرُّشد فى الرأى والسداد فى التصرف ، فكان حكيماً فى أفعاله ، عليماً فى آرائه .

وهكذا صار موسى وهو فى سن الرشد كاملاً ، نقياً ، عادلاً ، محظوظاً ذا جاه وعز ومنعة ، وقد عُرِفَ عنه ذلك ، ولم يُظهر ميله أو تعاطفه مع بنى جلدته مع ظلمهم ، لئلا يُتهم فى شىء من ذلك عند فرعون ومن فى مصر من القبط ، الذين اتخذوا أهله وعشيرته من بنى إسرائيل عبيداً لهم يُسخّرونهم كيف يشاءون .

خروج موسى من مصر وعودته برسالة ربه إلى فرعون

وكبر موسى فكان يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ملبس فرعون ، وكان يُدعى ابن فرعون .

وذات يوم ، خرج فرعون ، ولم يخرج معه موسى كعادته فقد كان غائباً فى ذلك اليوم ليقضى حاجة له ، فلما جاء موسى قيل له إن فرعون والدك خرج ، فركب فى أثره فأدركته القيلولة بمدينة منف وقت اشتداد الحر وانتصاف النهار ، فدخل المدينة . قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه » قال السدّى : وقيل الذى من شيعته هو السامرى ، والذى من عدوه طبّاخ فرعون واسمه فلنوث أو فاتون[1] .

وكان القبطى قد أخذ الإسرائيلى ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون ، وكان الحمل ثقيلاً ، فامتنع الإسرائيلى عن السخرة ، فاقتتلا ، وتصادف أن كان موسى ماراً فاستغاث به الإسرائيلى ، فأخبره القبطى أن الحطب لمطبخ أبيه

(١) عرائس المجالس .

فرعون ، فقال موسى : دَعْه أى اتركه ، فقال الطبّاخ : لقد هممت أن أحمله على ظهرك « فوكزه موسى فقضى عليه » . أى مات ولم يتعمد موسى قتله ، والوكز بأطراف الأصابع ، ثم إن موسى ندم على قتله ، فدفنـه فى الرمل وقـال : لم أؤمر بذلك ، ﴿ فإنـه من عمل الشيطـان إنه عدو مُضل مبين ﴾ (القصص : ١٥) « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب » أى ينتظر الأخبار من ناحية القبطى ، أن يؤخذ به فيقتل « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » وقد لزمه قبطى آخر يُريد أن يُسخّره ، فاستغاث به الإسرائيل على الفرعونى ، فصادف موسى وقد ندم على قتل القبطى بالأمس ، فقال للإسرائيلى ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ (القصص : ١٨) ومعناه ما كفانى أن قتلت بالأمس نفساً بسببك حتى أقتل آخر ، ثم مدّ يده إلى الفرعونى وظن الإسرائيلى أنه يريده ، فقال : ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ (القصص : ١٩) فلما سمع الفرعونى مقالة الإسرائيلى ، علم أن موسى قتل القبطى ، فأخبر فرعون ، فأرسل الذبّاحين وأمرهم بقتل موسى . فجـاء رجل من شيعتـه من أقصى المدينة فقال : ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ﴾ أى يتشاورون فى قتلك ﴿ فاخرج ﴾ من هذه المدينـة ﴿ إنى لك من الناصحين ﴾ (القصص : ٢٠) ﴿ فخرج منها ﴾ موسى ﴿ خائفاً يترّقب ﴾ أى ينتظر الطلب ﴿ قال ربّ نجنى من القوم الظالمين ﴾ (القصص : ٢١) .

وسـار موسى فى الصحراء قاصداً مَدْين ، وبينها وبين مصر عشرة أميـال . قال وهب : ولم يكن معه زاد ولا درهم ولا دينار ، ولا حذاء ، وكان يأكل ورق الشجر ويمشى حافياً حتى ورد ماء مدين .

وقال ابن عبـاس : لقد قال موسى ﴿ ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ . وجلس إلى الظل وهو صفوة الله فى خلقه ، وإن بطنه قد لصق بظهره من الجوع ، وإن خُضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لأحوج الناس إلى شق تمرة ، وإنه لأكرم خلق الله وما أجد على وجه الأرض أعزّ منه عند الله . قال تعالـى : ﴿ ولّما ورد ماء مَدْين وجد عليه أُمّة من الناس يسقون ﴾ أى جماعة من القوم يسقون أغنامهم ، ﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكمـا قالتـا لا نسـقى حتى يُصدِر الرعـاءُ وأبونـا شيخ كبير ﴾ (القصص : ٢٢ - ٢٣) .

وجد موسى أن المرأتين تذودان غنمهما عن غنم القوم أى تمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الاختلاط بأغنام الناس . وقيل تحبسان أغنامهما لضعفهما ، فإذا شربت أغنام الناس ، سقيا أغنامهما . فرَقَّ لهما قلب موسى ولانت عاطفته ، رغم ما عليه من التعب والإعياء .

فاقتلع صخرة من على رأس بئر أخرى بقرب تلك البئر لا يطيق رفعها إلاَّ جماعة من الرجال ، فسقى لهما ﴿ ثم تولى إلى الظلّ ﴾ أى إلى ظل شجرة ﴿ قال ربِّ إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير ﴾ (القصص : ٢٤) ، والخير : الطعام ، وهو فى القرآن على وجوه ، وقال الفراء: الخير اسم لكل ممدوح والشر اسم لك مذموم .

سقى لهما دون ابتغاء أجر ، أو طلب مساعدة ، بل سقى لله وفى الله ، ولم يطلب الأجر إلا من الله .

فلما رجعتا إلى أبيهما مسرعتين على غير عادتهما ، سألهما عن السبب ، قالتا وجدنا رجلاً صالحاً فسقى لنا ، وكانت إحدى الفتاتين قد سمعت مناجاة موسى حين آوى إلى الظل « رب إنّى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير » . فقال لها أبُوها : اذهبى فادعيه ، فأتته ﴿ تمشى على استحياء ﴾ وقد سترت وجهها بيديها ، فقالت : ﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ (القصص: ٢٥) ، فتبعها . قال مطرف بن عبد الله : لو كان عند نبى الله شىء ما تبعها ، ولكن حمله على ذلك الجهد .

وسُئل سُفيان بن عُيينة فقيل له : الرجلُ يعمل العمل لله : يُؤَذن ، أو يؤُمّ ، أو يعين أخاه فيُعطى الشىء فهل يقبله أم لا ؟

قال : نعم يقبله ، ألا ترى أن موسى عليه السلام لم يعمل للعمالة ، وإن عمل لله تعالى فعرض له رزق من الله فقبله ، ثم قرأ ﴿ إن أبى يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت لنا ﴾ .

وقال وهب : فمشى وهى بين يديه ، فهبت الريح فعطفت ثوبها على ردفها فقال لها : امشى خلفى فإننا لا ننظر إلى أعجاز النساء .

﴿ فلما جاءه ﴾ يعنى شعيباً ، والد الفتاتين ، وهو شيخ الأنبياء وأكبرهم، ﴿ وقصَّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ (القصص : ٢٥) يعنى فرعون وقومه لأنه لا سلطان له على أرضنا .

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ ليرعى أغنامنا ، ﴿ إن خير من استأجرت القوىّ الأمين ﴾ (القصص : ٣٦) سألها أبوها : وما علمك بقوته وأمانته ؟ قالت : رفع صخرةً لا يرفعها إلا جماعة من الرجال ، فهو قوىّ ، وأما أمانته فإن الريح هبّت بثوبى ، فقال لى : كونى خلفى .

فحينئذ قال الأب لموسى : نحن أحرار فى بلادنا ، نسير بالعدل ، و﴿ إنى أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أُريد أن أشقّ عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ (القصص : ٢٧) أى أنى أُريد أن أُزوجك إحدى بنتى هاتين الصغرى أو الكبرى بشرط أن تكون أجيراً لى ثمانى سنين ترعى فيها غنمى ، فإن أكملتها عشراً فذلك تفضّل منك وليس بواجب عليك وما أُريد أن أوقعك فى المشقة باشتراط العشر وستجدنى إن شاء الله حسن المعاملة ، ليّن الجانب ، وفياً بالعهد . قال القرطبى : في الآية عرض الولى ابنته على الرجل وهذه سُنّة قائمة ، عرضت الموهوبة نفسها على النبى ﷺ فمن الحُسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح ، فرضى موسى وقال : ﴿ ذلك بينى وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل ﴾ (القصص : ٢٨) . وفى حديث أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : تزوج الصغرى منهما ، وهى التى قالت يا أبت استأجره .

وتزوج موسى فتاته ، وهى الصغرى ، التى أقبلت عليه فدعته ، وسارت معه حتى أوصلته إلى أبيها ، وهى التى امتدحته وعرفت خلاله من طريقته معها ، فوصفته لأبيها بالقوى الأمين ، وهى التى طلبت إلى أبيها استئجاره .

فلما أتمّ موسى المدة التى اتفقا عليها قال ابن عباس : قضى أتمَّ الأجلين وأوفاهما ، عشر سنين ، وسُئل النبى ﷺ : أى الأجلين قضى موسى ، قال : « أبعدهما وأطيبهما وأوفاهما وأتمهما » .

واختلف المفسّرون فى والد الفتاتين . وأرجح الأقوال ، أنه شُعيب النبى الذى أُرسل إلى أهل مدْين .

وقال مجاهد : أقام بعد فراغ الأجل عشر سنين أخرى ، فكمل عشرين سنة ، وعامة العلماء على أنه قضى الأجل بأهله كما أخبر الله تعالى .

فلما قضى موسى الأجل ، أمر زوجته أن تُخبر أباها ، ليأذن لهما فى السفر ، وأن تسأله أن يعطيهما من غنمه ما يعيشون به وكانت غنمه سوداء حسناء ، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لون[1] ممن وُلد فى ذلك العــام . وأما عصاه فهى التى أعطاها إيّاه شعيب عليه السلام ليدرأ بها عن غنمه السباع .

هنالك سار موسى بأهله وغنمه ، فسلك بهم فى ليلة مظلمة شديدة البرد وكانت امرأته حاملاً ، فأخذ الطلق زوجته ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك . قال ابن عباس : أمر الله تعالى النيران فى تلك الليلة أن تخمد فلا تظهر فى الأرض نار .

وعندمــا آنس من جانب الطور ناراً تضىء له على بُعد ، فقــال لأهله ﴿ امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار﴾ (القصص : ٢٩) جذوة : أى شعلة ، ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ (طه : ١٠) . لأنه كان قد ضلّ الطريق ، فعلم أن النـار لا تخلو من مُوقِد ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ (القصص : ٢٩) أى تستعيذون من البرد ، وكانت ليلة الجمعة .

ذهب موسى إلى مكان النار ، والتى وعد أهله أن يأتيهم بقبس منها ، أو يجد عليها هدى ، فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة ، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرّماً ، ولا تزداد الشجرة على شدة الحرق إلا خضرة وحُسنــاً ، فوقف ينظر لا يدرى ما يصنع وحـار فى أمرها ، إلا أنه ظن أنها شجرة تحترق ، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شىء فيقبسه . قال مجاهد : وسمع تسبيح الملائكة فخــاف خوفاً عظيماً ، قال وهب : فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضغث فى يده ليقتبس منها ، فمالت نحوه كأنها تريده ، فاستأخر عنها ثم عاد ، فلم يزل كذلك ، فما كان بأسرع أو بأوشك من خمودها ، فتعجّب وقال : إن لهذه النار لشــأناً . فوقف متحيراً ، فإذا بخُضرتها قد صارت نوراً ، عموداً ما بين السماء والأرض ، فاشتد خوفه وكاد يُخالَط فى عقله من شدة الخوف .

وقال مجاهد : صارت عموداً من نور له شعاع مثل شعاع الشمس تكلٌّ

---

(١) قالب لون : يحتوى على ألوان (ملوّنة) : ابن كثير .

دونه الأبصار . فعند ذلك خاف ووضع يديه على عينيه ولصق بالأرض ، فسمع حساً وشيئاً لم يسمع السامعون مثله .

فلما اشتدّ كربه وكاد أن يذهب عقله ، فنودى من الشجرة يا موسى ، فأجاب سريعاً وما يدرى من دعاه ، فقال : لبيك ، أسمع صوتك ولا أرى مكانك ، فأين أنت ؟

قال : أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك . فلما سمع موسى ذلك علم أنه لا ينبغى ذلك إلا لربه تعـالى ، فأيقن به فقال : كذلك أنت إلهى ، أكرمك أسمع أم رسولك ؟ قال : بل أنا الذى أُكلّمك . وقال السدى : فذلك معنى قوله ﴿ فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن ﴾ أى من جانبه ﴿ فى البقعة المباركة ﴾ أى المقدسة ﴿ من الشجرة ﴾ . قال ابن مسعود : كانت الشجرة مثمرة خضراء ترفّ وقال قتادة : ناداه ﴿ يا موسى إنى أنا الله ربُّ العالمين ﴾ (القصص : ٣٠) وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وقرّبناه نجيّا ﴾ (مريم : ٥٢) أنه أُدنى حتى سمع صرير الأقلام فى اللوح المحفوظ ، وضرب الله على قلبه صفائح النور ، ولولا ذلك لما أطاق سـماع كلام الله تعالى .

فقال الله تعالى : ادْن منى ، فجمع موسى يديه فى العصا ، ثم تحامل حتى استقلّ قائماً ، وأُرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب ، حتى وقف بمنزلة قريباً من الشجرة ، فقال له الربّ تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصاى أتَوَكأ عليها وأهشُّ بها على غنمى ولى فيها مآرب أُخرى ﴾ (طه : ١٧ - ١٨) . قال مجاهد : ومعنى أتوكأ عليها : أى أعتمد إذا عييت من المشى ، وأهش : أخبط بها الشجر ليتناثر الورق فتأكل منه الغنم ، والمآرب: الحاجات .

وقال ابن عباس : كان له فيها ألف حاجة ، منها أنه كان يحمل عليها زاده وسقاءه ، وإذا خاف حدّثته وآنسته ، وإذا جاع أو عطش ضرب بها الأرض فيظهر الطعام والشراب ويحارب بها العدو ، وتدفع عنه الوحوش والهوام ، وإذا اشتهى ثمرة غرزهـا فى الأوض فصـارت غصناً وأورقت وأثمرت ، إلى غير ذلك . والصحيح أنها كانت من آس الجنّة .

فإن قيل : فقد علم الله حال العصا ، فلم كان أول كلامه له : وما تلك

بيمينك ؟ فالجواب : إن هذا على وجه المباسطة له ، لأنه لما رأى النار ، وسمع تسبيح الملائكة وشاهد ما حكينـا ، خاف وصـار كل عضو منه على حدة ، فباسطه الله تعالى بذلك ، ليثبت جنانه فيصلح حينئذ لحمل الرسالة إلى فرعون (١) .

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ (طه : ١٩) فألقاها على وجه الأرض ثم حانت منه نظرة فإذا هى بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدبُّ كأنه يلتمس شيئاً يريد أخذه ، يمر بالصخرة فيقلبها ، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيقتلعها ويبتلعها ، عيناه توقدان ناراً ، وله فم واسع فيه أضراس وأنياب لها صريف ، فلما عاين ذلك موسى ولّى مُدبراً ، فذهب حتى أمعن فى البريّة ، ثم ذكر ربه ، فوقف استحياءً منه ، فنودى يا موسى ارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف ، فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْها ولا تخفْ سنُعيدها سيرتها الأولى ﴾ (طه : ٢١) وعلى موسى يومئذ مدرعة صوف ، قد خلّها بخلال من عيدان ، فأثنى طرف مدرعته على يده ليأخذها .

فقال له مَلَك : أرأيت يا موسى ، لو أذن الله لما تحاذر ، أكانت المدرعة تُغنى عنك شيئاً ؟

قال : لا ، ولكنى ضعيف ، ومن ضعف خُلقت ، فكشف عن يده ووضعها فى فم الحيّة حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب ، ثم قبض عليها فإذا هى عصاه التى عَهِدها .

فإن قيل : فلم خاف موسى من العصا ولم يخف إبراهيم من النار ؟ فالجواب : إن تحويل العصا من فعل الله تعالى ، وإيقاد النار من فعل الخلق ، وقيل خاف موسى أن تلك الحيّة التى أُخرج آدم من الجنّة بسببها ، أو من جنسها ، فلهذا خاف ، والسعيد من وُعِظ بغيره . وقيل لما أضافهـا إلى نفسه « هى عصاى » أراه المولى جلّ وعلا أن مَن اتكل على غيره تعقَّبه الفرار .

ويسمع النـداء ﴿ إنى أنـا ربك فاخلع نعليـك إنَّك بالوادى المقدّس طوى ﴾ ، (طه : ١٢) أمره بإلقاء نعليه لتنال قدماه من بركة تلك الأرض ، لأنه قُدّست بالكلام وقال الحسن : إنه علّمه التواضع ، ألا ترى أن من طاف

---

(١) تفسير ابن كثير .

بالبيت فإنه يخلع نعليه تواضعاً ، طوى : أى مطهر ، أى فإنك بالوادى المطهر المبارك المُسمّى طوى ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ (طه : ١٣) أى اصطفيتك للنبوة فاستمع لما أوحيه إليك ، قال الرازى : فيه نهاية الهيبة والجلاله فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ﴾ أى أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيرى فأفردنى بالعبادة والتوحيد ، وهذه الوحدانية هى أول درجات الإيمان ، وأصل دوحته ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (طه: ١٤) أى أقم الصلاة لتذكرنى فيها قال مجاهد : إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار .

وقال الصاوى : خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة فى جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهى أفضل أركان الدين بعد التوحيد .

﴿ إن الساعة آتية أكاد أُخفيها ﴾ أى أن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة ، أكاد أُخفيها عن نفسى فكيف أُطلعكم عليها ؟ قال المبرّد : وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشىء : كتمته حتى من نفسى أى لم أُطلع عليه أحداً .

﴿ لتُجزى كل نفس بما تسعى ﴾ (طه : ١٥) أى لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر .

قال المفسرون : والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت ، أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار ، فلو عرف وقت الساعة أو وقت الموت ، لاشتغلوا بالمعاصى ثم تابوا قبل ذلك ، فيتخلصون من العقاب ، ولكن الله عمَّى الأمر ، ليظلَّ الناس على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت .

وقد ثبَّتَ الله فؤاد موسى ، بعد أن أراه آية العصا ، قال تعالى : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ ، ثم أيده الله بآية أُخرى ، ودليل آخر ، ومعجزة على غير العادة : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أُخرى . لنُريك من آياتنا الكبرى ﴾ (طه :٢٢ - ٢٣) .وفى آية : ﴿ اسلُك يدَك فى جيبك تخرج بيضاءَ من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾(القصص:٣٢) .

فأخرج يده من جيبه ، بيضاء ولها شعاع كالشمس ، فلما أدخلها فى جيبه ثانية ، عادت إلى حالتها الأولى .

قال الربيع بن أنس : أمره الله أن يضع يده على صدره ليذهبَ عنه الرعب عند معاينة الحيَّة .

إلى هنا ثبت فؤاد موسى ، وعرفَ سر آيات الرسالة ؛ فعصاه آية ، ويده آية وهى سبيل تصديقه لدى من يكون له رسولاً ، وهو فرعون وملأه أنهم كانوا قوماً فاسقين .

المواجهة فى قصر فرعون

حين دنت ساعة المواجهة بينه وبين فرعون طلب موسى من المولى جل وعز ، أن يشد عضده بأخيه هارون ليكون له وزير صدق ، يعاونه فى مواجهة فرعون الجبار فكان له ما أراد .

﴿ قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحْلل عقدة من لسانى . يفقَهُوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركْهُ فى أمْرى . كى نسبِّحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (طه : من ٢٥ - ٣٦) .

قال العلماء : ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلاً .

وقال ابن عباس : لما أمره الله بالرسالة قال : ﴿ إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ (القصص : ٣٣) ﴿ وأخى هارون هو أفصحُ منى لســاناً ﴾ وأحسن بياناً ﴿ فأرسلْه معى ردءاً ﴾ (القصص : ٣٤) أى معيناً فقال الله له ﴿ سنشدُّ عَضُدَك بأخيك ﴾ أى نقويك ونعينك ، وكان هارون يومئذ بمصر ، ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أى قوة وحجة وبرهاناً ﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (القصص : ٣٥) .

وقال مقاتل : وقوله تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ﴾ وهى اليد والعصا . ﴿ ولا تنيا ﴾ (طه : ٤٢) تضعفا وتفترا وتُقصِّرا . ﴿ إذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى عتا وتجبَّر ، ﴿ فقولا له قولاً ليِّناً ﴾ (طه : ٤٤) أى لا تُعنِّفاه ولا تغلظا له ؛ وقال عكرمة : معناه كنِّياه . فإن الملوك يأنفون من

التوبيخ بين الناس ، ولهذا قالوا : لا ينبغى لأحد أن يقابل السلطان بما يكره ، بل يكتب النصائح فى ورقة .

وفى آية ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ (طه : ٤٣) أى علا وتكبَّر وكفر ، فادعه إلى عبادتى ، واعلم أنى قد ربطت على قلبه ، فقال يا رب كيف تأمرنى بهذا وقد ربطت على قلبه ؟ فقال له مَلَك من خُزَّان الريح : يا موسى انطلق ، فإننا اثنا عشر ألف خازن من خزان الريح ، لا ندرى ما هذا ؟ ولا علمناه .

فإن قيل فقد علم الله منه أنه لا يؤمن ، فما معنى قوله ﴿ لعلَّه يتذكر أو يخشى ﴾ (طه : ٤٤) .

فالجواب : إن فى ذلك تركيب الحجة عليه ، لاحتمال أنه إذا رأى العذاب يقول : لا ذنب لى ، فيُقال له : قد أُنذرت قبلُ ، فلا عذر لك .

وقال مقاتل بن سليمان فى المبتدأ : ولما عزم موسى على قصد فرعون ، قال جبريل : يا إله العالمين ، أترسله وهو عريان ؟ ، وعند عدوه من العدة والعدد ما قد علمت ، فقال له الله تعالى : « ادخل إلى الجنّة وانظر أعظم قلنسوةٍ فيها ، فألبسْهُ إياها وانظر أوطأ ركابٍ فأركبه إياه ، وانظر أصرم سيف فأعطه إياه ، واخترِ له أشجع جند فدخل الجنَّة وخرج وليس معه شىء ، فقال الله تعالى : فأين ما ذكرت لك ؟ قال : يا إلهى ! ما وجدت قلنسوةً أعظم من الهيبة ، ولا مركباً أعظم من التوفيق ، ولا سيفاً أقطع من الحجة ، ولا جنداً أبلغ من النصرة ، ولا لباساً أتم من العافية ، فقال الله تعالى : فأعطـه ذلك كله ، فأعطاه إياه .

وقال وهب والحسن : أوحى الله إلى هارون فبشره برسـالته ونبوة موسى ، وأنه قد جعله وزيره ورسوله معه إلى فرعون ، فإذا كان يوم الجمعة غرة ذى الحجة ، فأخرج إلى جانب النيل قبل طلوع الشمس ، لتلقى أخاك ، ففعل .

والتقيا فتعانقا وبكيا ، وذهبا إلى أمهما، فلما رأتهما العجوز ، لم تتمالك دموعها من شدة الفرح ، وقامت إلى موسى تضمُّه إلى صدرها، وتُقبِّل ما بين عينيه ، وتحمد الله تعالى أن حقق لها وعده ، وعاد إليها موسى سالماً ، ورسولاً من الله تعالى إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين . قال تعالى :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمِّ ولاَ تخافى ولَا تحزنى إنَّا رادوه إليك وجَاعلُوه من المرسَلين ﴾ (القصص: آية٧) .

ثم توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى مدينة منف ، عاصمة مملكة فرعون وقد أحاطها بالأسُود من كل جانب ومعها سوَّاسها لتوفر له الحماية والأمن . وأقبل موسى وهارون من الطريق الرئيسى الموصل إلى قصر فرعون ، فلما رأتهما الأُسْد لم تزمجر كعادتها ، بل صاحت صياح الثعالب ، وكأنها فرحة مُستبشرة بمقدم رسولا رب العالمين ، فأنكر ذلك سوَّاسها وخافوا من فرعون !!

ولما وصلا إلى باب القصر ، قرعه موسى بعصاه ، فعجب البواب من جُرأته ، وقال بلهجة قاسية : أتدرى باب من تضرب ؟ إنما تضرب باب سيِّدك . فقال موسى : أنا وأنت وفرعون عبيد الله تعالى .

كان فرعون قد ادعى الربوبية ، وأنكر الألوهية ، واستخف بعقول قومه من المصريين ، فنصَّب نفسه إلهاً عليهم يعبدونه من دون الله ، ويقدمون له فروض الولاء والطاعة ، ويذكر القرطبى أن الفرعون الذى ادعى الربوبية ، هو الذى صنَّف المصريون فى سيرته ، وخلّدوا ذكرها ، وكانت أرض مصر على أيامه فى نهاية العمارة فعظمت دولته ، وكثرت عساكره .

وفى مُناجاة موسى عليه السلام : يا رب لِمَ أطلت عمر عدوك فرعون مع ادعائه ما انفردت به من الربوبية وجحد نعمتك ؟

فقال الله تعالى أمهلته لأن فيه خصلتين من خِصال الإيمان : الجود والحياء .

وهو الذى أمر وزيره هامان أن يرد الأموال[1] التى أخذها ظلماً من المصويين ؛ عندما حفر خليج السردوسى ؛ قائلاً له : « ويحك ! إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده ولا يطمع بما فى أيديهم » .

وقال سعيد بن جُبير : مَلَك فرعون أربعمائة سنة ، ما جاع ولا حُمَّ ولا صُدِع ، ولو ذاق شيئاً من ذلك لما ادعى الربوبية ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (القصص : ٣٨) . هكذا كان شأن فرعون مع عِلية قومه وسادتهم ، فكيف يكون الحال مع بقية الرَّعيّة ؟

---

(١) كان هامان قد أخذها من أهل القرى التى يمر بها الخليج .

وظل على هذا الوضع أربعين سنة كما يروى ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم ازداد خطره ،واستفحل شره فكانت مقولتـه الفاجرة لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ، وكذب عدو الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه[1] وقال الحسن : كان مع ادعائه الربوبية يعبد تيساً وقيل صنماً .

سأل فرعون القادمين : من أنتما ؟

فقالا : ﴿ إنَّا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولاَ تعذِّبهم قد جئناك بآيةمن ربك والسلام على من اتَّبع الهُدى ﴾ (طه : ٤٧) .

وفى آية أُخرى ﴿ إنَّا رسُول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ (الشعراء ١٦ - ١٧) .

كان فرعون وقومه يستعبدون بنى إسرائيل ؛ قوم موسى وهارون .

أصدر فرعون أوامره إلى قومه فكانوا يستعملون نساء بنى إسرائيل للخدمة فى البيوت ، ويذبحون الأبناء ، أما أهل القوة منهم فكانوا ينحتون السوارى من الجبال حتى قرحت أعناقهم ، ودبرت ظهورهم ، وطائفة ينقلون الخشب ، وآخرون يبنون ، وقوم يطبخون الأجرّ [2] ، وآخرون يعملون الحديد ، ووضع فرعون على الضعفـة منهم الضرائب. ، يؤدون كل يوم ضريبة ، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدى ضريبته ، غُلَّت يمينه إلى عنقه شهراً ، وكانت النساء يغزلن الكتان وينسجنه أيضاً .

لهذا كان طلب موسى وهارون إلى فرعون أن يدع بنى إسرائيل لكى يذهبوا معهما إلى الشام (فلسطين) كما أمرهم الله .

نظر فرعون فإذا الذى يكلمه هو نفسه موسى الذى رباه فى قصره ، فقال بلغة المنّ والاستحسان :

﴿ ألم نُرَبك فينا وليداً ﴾ ﴿ وفعلت فعلتك التى فـعلت ﴾ (الشعراء : ١٩) .

فقال له : يا فرعون آمن برب العالمين

فقال : خذوه ، فبـادرهم موسى ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ (الشعراء : ٣٢) فحملت على جند فرعون فانهزموا ، وتدافعوا حتى قتل

---

(١) القرطبى ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ .

(٢) الطوب (اللبن المطبوخ) .

بعضهم بعضاً ، وقام فرعون فولى مذعوراً إلى داخل قصره ، ثم عاد وهو يرتجف ويقول لموسى : اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه ·

فقال له موسى : لم أومر بذلك ، وإنما أُمرت بمناجزتك ، فإن أنت لم تخرج إليَّ دخلت إليك ·

فأوحى الله إلى موسى : اجعل بينك وبينه أجلاً ، وأجل ذلك إليه ·

فقال فرعون : أجّلنى أربعين يوماً ، ففعل ·

وكان فرعون يخرج للنزهة كل أربعين يوماً مرة ، فأخلف ذلك اليوم أربعين مرة ، وفى كل مرة يصطحب موسى أخاه هارون ويذهبا للقاء فرعون ، فلا يخرج لمقابلتهما ، حتى أخلف موعده أربعين مرة ·

وقال وهب : إن موسى لما دخل على فرعون قال له : آمن حتى أسأل الله أن يرد عليك شبابك ، فأخبر هامان بذلك ، فقال له : اصبغ بالسواد ، فصبغ ، وهو أول من فعل ذلك ·

قال علماء السير : لما دخل موسى على فرعون قال له : إن كنت جئت بآية فأت بها ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ (الشعراء ٣٢ ، ٣٣) وأخرجها ولها شعاع مثل شعاع الشمس ·

كان أمر موسى وما جاء على يديه من الخوارق والمعجزات وهى العصا واليد أهم ما يقلق بال فرعورن وينغص عليه حياته فبعد أن استوت له الأمور مع قومه المصريين وأعلن نفسه إلهاً لهم دون منازع ، فكيف يجىء اليوم من ينازعه فى هذا الأمر ؟

فضلاً عن كونه إسرائيلياً ، وهم فئة قليلة مُستعبدة عنده وعند قومه · وكيف يجحد موسى فضله وإحسانه إليه وهو الذى رباه فى قصره وخصه برعايته حتى شب وترعرع وكان يعتبره ابناً وبعد هذا يكون هو الذى ينازعه أمر ألوهيته ؟ وبعد أن مكث زمناً ليس بالقليل وهو يقول لقومه « ما علمت لكم من إله غيرى ؟ » ثم أعلنها صراحة دون مواربة « أنا ربكم الأعلى » ·

لهذا بعث فى طلب موسى وأرسل إليه ليناقشه فيما يدعيه · وجاء موسى ومعه أخاه هارون كالعادة ·

قال فرعون فى تعالٍ واستكبار : ﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ يا موسى : من هو هذا الذى تزعم أنه ربّ العالمين ؟ هل هناك إله غيرى ؟

قال موسى مخاطباً فرعون وأشراف قومه من حوله : الله هو خالق السموات والأرض ، والمتصرّف فيهما بالإحياء والإعدام ، وهو الذى خلق الأشياء كلها من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، ونبات وثمار . وغير ذلك من المخلوقات البديعــة ، إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ، فهذا أمر ظاهر جلى ﴿ قــال رب السـموات والأرض وما بينهمـــا إن كنتم مـوقنين ﴾ (الشعراء : ٢٤) .

نظر فرعون إلى من حوله من أشراف قومه وقال على سبيل التهكم والاستهزاء من موسى : ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره ؟! أسأله عن حقيقة الله فيجيبنى عن صفاته .

فأجاب موسى وزاد فى البيان قائلاً : الله هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢١) .

فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون وقال ساخراً : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ (الشعراء : ٢٧) .

فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعــاد إلى تأكيد الحجة بأقوى منهــا ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ (الشعراء : ٢٨) . أى أن الله تعالى هو الذى يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب وهذا مشهد يتكرر كل يوم ويبصره العاقل والجاهل ولا يقدر عليه إلا رب العالمين ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، كما قال تعالى ﴿ ألم ترَ إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله المُلك إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأُميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهِتَ الذى كفر ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

ولهذا لما غُلِبَ فرعون ، وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قــال لئن اتخــذت إلهــاً غيرى لأجعلنــك من المسجونين ﴾ (الشـعراء : ٢٩) .

وكان سجنه شديداً يحبس الشخص فى مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع أحداً حتى يموت ٠

ويتكرر المشهد القرآنى السابق فى آية أخرى ، يبعث فرعون فى طلب موسى عليه السلام فيأتى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون يقول تعالى مخبراً عن فرعون : أنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ (طه : ٤٩) ٠وكانت هذه مناظرة أخرى ، أى قال فرعون : من هذا الرب الذى تدعونى إليه يا موسى ؟ فإنى لا أعرفه ؟

ولم يقل من ربى لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقه ثم هدى ﴾ (طه : ٥٠) ٠

أجاب موسى :٠ربنا الله الذى أبدع كل شىء خَلقه ثم هداه لمنافعه ولمصالحه وهذا جواب فى غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها ، فقد أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان ٠

قال الزمخشرى : ولله درٌّ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ٠

لما أخبر موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق ، وقدَّر فهدى شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى قائلاً : ما بالهم إذْ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟

﴿ قال فما بال القرون الأولى ٠ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضلُّ ربى ولا ينسى ﴾ (طه : ٥١ - ٥٢) ٠

أى قال موسى عليه السلام : علْمُ أحوالها وأعمالها عند ربى مسطر فى اللوح المحفوظ ، لا يخطىء ربى ولاَ يغيب عن علمه شىء منها ٠ لم تكن التوراة قد نزلت على سيدنا موسى ولهذا ردَّ العلم إلى الله تعالى ، لأنها إنما أنزلت عليه بعد غرق فرعون وخروجه من مصر ٠

ثم شرع موسى يبين له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أى جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿ وسَلَك لكم فيها سبُلا ﴾ أى جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ أى أنزل لكم من السحاب المطر

عذباً فراتا ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ أى فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة ، كل صنف منها زوج ، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيها على عظمة الله تعالى ﴿ كُلوا وارعوا أنعامكم إنَّ فى ذلك لآيات لأولى النهَى ﴾ (طه ٥٣ - ٥٤) . أى كلوا من هذه النباتات والثمار . واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذى أخرجه الله والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم ، وإنَّ فيما ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته .

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد (يوم القيامة) فقال : ﴿ منها ﴾ أى من الأرض ﴿ خلقناكم وفيها نعيدكم ومِنهَا نُخرجكم تارةً أخرى ﴾ (طه : ٥٥) .

أى من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً . . . ومن الأرض نُخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب .

فما موقف فرعون ؟ لم تتغير فيه المكابرة ، ولم يستطع النزول عن عنجهيته ، بل تمادى فى غيه ، وأخذته العزة بالإثم ، واتجه إلى من معه من الملأ ، وقال : ﴿ إنَّ هَذا لساحرٌ عَليمٌ . يريد أن يُخرجكم من إرضكم بِسْحره فماذا تأمرونَ ﴾ (الأعراف : ١١٠) .

إلى هنا وقد لعب فرعون بعقول القوم ، وحفزهم واستنجد بهم على موسى وأخيه . ، فماذا يفعل القوم إزاء هذا كله وقد استشارهم فرعون ، وأعلى من قدرهم بهذه المشورة ؟

﴿ قالُوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عَليم (الأعراف : ١١٢) .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام وتسخير الله تعالى لهم فى ذلك اليوم ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرةً ، وأمام الملأ والكل حاضرون شاهدون .

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتيك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحْشر الناس ضُحى ﴾ (طه : ٥٧ - ٥٩) .

واختلفوا فيه قال ابن عباس : يوم عاشوراء ، كانوا يتزينون فيه ؛ وقال مقاتل يوم عيدهم ؛ وقال ابن المسيب : يوم النيروز ·

المؤمنون مع آسية رضى الله عنهم

كانت آسية امرأة فرعون من هؤلاء النفر الذين أتم الله عليهم بنعمة الإيمان ومنهم شمعان أو شمعون[1] مؤمن آل فرعون الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وكان ابن عم فرعون ، وقيل من آله · قال مجاهد : وهو الذى قال الله فيه ﴿ وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى ﴾ (القصص : ٢٠) وجادل عن موسى فقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ وقوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ﴾ استفهام إنكار ﴿ وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه ﴾ لا يضركم ﴿ وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعضُ الذى يعدكم ﴾ (غافر : ٢٨) من العذاب ،والمراد بالبعض ها هنا الكل ·

وثالثتهم مريم بنت موميا ماشطة بنت فرعون وكان هؤلاء الثلاثة قد أوقع الله فى قلوبهم الإسلام ، وكتموا إيمانهم خوفاً من فرعون وبطشه ·

قال ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون إلا هؤلاء الثلاثة ·

وروى أحمد فى مسنده ، عن عبد الرحمن بن محمد القزاز ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « لما أُسرِىَ بى مررت برائحة طيبة ، فقلت : يا جبريل ما هذه الريح ؟ قال هذه ريح ماشطة ابنة فرعون ، كانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت : بسم الله ، فقالت لهـا ابنة فرعون : أبى ؟ قالت : لا ، بل ربى وربّ أبيك ، فأخبرت فرعون ، فدعاها فقـال من ربك ؟ فقالت : ربى الله الذى فى السماء ، فأمر بنقرة[2] من نحاس فأحميت ، ودعا بها وبولدها ·

فقالت له : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قالت : تجمع عظامى وعظام ولدى ، فتدقهما[3] جميعاً ·

فقال : إن لك من الحق علينا ما تستوجبين ذلك ·

وكان لها أولاد فجمعهم ، ثم ألقى واحداً بعد واحد فى النقرة وهى

---

(١) وقيل حبيب وقيل حزقيل ، وقال مقاتل : خيرك والله أعلم ·

(٢) النقرة: وعاء ضخم عميق مصنوع من النحاس·(٣) مسند أحمد : وتدفننا ·

تغلى ، حتى إذا كان آخر ولدها ، وهو طفل رضيع ، أنطقه الله تعالى فقال : يا أُماه اصبرى ، فإنك على الحق ، فألقاها مع أولادها .

وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال[1] : كان إيمان آسية امرأة فرعون من قِبَل إيمان امرأة خازن فرعون وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها ، فقالت : تَعِسَ من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : ولكِ ربٌّ غيرِ أبى ؟

قالت : نعم ، ربى وربٌّ أبيك ورب كل شىء ، الله .

فلطمتها بنت فرعون ، وضربتها ، وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون ، فقال تعبدين ربّاً غيرى ؟ قالت : نعم ، ربى وربك وربٌّ كل شىء الله وإياهُ أعبد ، فعذبها فرعون ، وأوتد لها أوتاداً ، فشد يديها ورجليها ، وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوماً ، فقال لها : ما أنتِ منتهية ؟ .

فقالت له : ربى وربك ورب كل شىء الله .

فقال لها : إنى ذابح ابنك فى فيك إن لم تفعلى .

فقالت له : اقضِ ما أنت قاض فذبح ابنها فى فيها ، وإن روح ابنها بشرها فقال لها : أبشرى يا أُمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت ، ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر فى فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها : اصبرى يا أُمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، قال وسمعت امرأة فرعون (آسية) ، كلامَ روح ابنها الأكبر ثم الأصغر ، فآمنت امرأة فرعون ، وهكذا أراد الله لها السعادة ، فكانت من المؤمنين برسالة موسى وهارون .

وقبض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لآسية ، حتى رأته عيَانا فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً .

اجتماع السحرة

قال تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى .

---

(١) تفسير ابن كثير .

فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النجوى · قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى · فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (طه : ٦٠ -٦٤) ·

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، على درجة عالية من المعرفة بعلم السحر وفنونه ، فاجتمع منهم خلق كثير ، قيل كانوا ثمانين ألفاً · قاله محمد بن كعب ، وقيل : سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبى بردة ، وقال السدى : بضعة وثلاثين ألفاً ، وعن أبى أمامة : تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد ابن إسحق : خمسة عشر ألفاً ·

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بنى إسرائيل ، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ، ولهذا قالوا : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ (طه : ٧٣) · وفى هذا نظر ·

وأصدر فرعون أوامره إلى أهل مملكته أن يحضروا هذا الموقف العظيم فحضروا جميعاً عن بكرة أبيهم يتقدمهم فرعون وأمراؤه ورجال الدولة والوزراء وطوائف الشعب على اختلاف طبقاتهم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (الشعراء : ٤٠) ·

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطى السحر بالباطل ، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى · فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ (طه : ٦٢) ·

قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبى وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، وأسرّوا التناجى بهذا وغيره ·

﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ (طه : ٦٣) · يقولون : إن موسى وأخاه هارون ، ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمران عليكم بهذه الصناعة ·

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (طه : ٦٤) .

وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان ، والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان ، على يدى عبده الحكيم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان !

« قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (طه : ٦٥ . ٦٩) .

لما اصطفت السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا : يا موسى إما أن تلقى قبلنا ، وإما أن نلقى قبلك ﴿ قال بل ألقوا ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره ، من الأشياء التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطراباً يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرَك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، فألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ (الشعراء : ٤٤) .

قال الله تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ (الأعراف : ١١٦) . وقال تعالى « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى » أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم قبل أن يلقى ما فى يده ، فإنه لا يصنع شيئا قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه فى هذه الساعة الراهنة ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

فعند ذلك ألقى عصاه وقال : ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن

الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المـــجرمون ﴾ (يونس : ٨١ ، ٨٢) .

وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنـالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ (الأعراف : ١١٧ - ١٢٢) .

وذلك أن موسى عليـه السلام لما ألقـاهـا ، صارت حية عظيمة ذات قوائم ، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف ، ولها عنق عظيم وشكل هائل مزعج ، ففزع الناس منها وهربوا سراعاً ، وأقبلت هى على ما ألقاه السحرة من الحبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون من أمرها ! وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صنعتهم ، وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ، وليس من الخيال ، فلا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى بعثه به .

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارهـا بما خلق فيهـا من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، فأنابوا إلى ربهم وخرّوا له ساجدين ، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ، بل قالوا جهرة للحاضرين : ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ .

قال سعد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم ، وتُزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى فرعون وتعديده ووعيده .

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا مع موسى وهارون وأشهروا إسلامهم على الناس بهذه الصفة الجميلة ، أفزعه ، ورأى أمراً بهره واعمى بصيرته وبصره .

فقـال مخاطبـاً السحرة بحضرة الناس : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ (الشعراء : ٤٩) . أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ؟!

ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب قائلاً : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ (الشعراء : ٤٩) . وقال فى الآية الأخرى ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ،فسوف تعلمون ﴾ (الأعراف:١٢٣) .

وهذا الذى قاله من البهتان الذى يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يرَ هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ؟

ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، ووادٍ سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

والحقيقة أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر ، وزاد فى عتوه وجبروته وطغيانه لما رأى إيمان هؤلاء السَّحرة بموسى وهارون وشاهده عياناً بياناً بحضرته وبين رعيته ، فقال مهدداً متوعداً : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » يعنى يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ (الأعراف : ١٢٤) . أى ليجعلهم مُثْلةً ونكالاً لئلا يقتدى بهم أحد من رعيّته وأهل ملته .

ولهذا قال : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ (طه : ٧١) . أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر .

﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ (طه : (٧١) . يعنى فى الدنيا .

فماذا قال المؤمنون بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم ورأوا بعين اليقين منازلهم وقصورهم فى الجنّة ؟

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ والذى فطرنا ﴾ قيل معطوف وقيل قسم ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أى فافعل ما قدرت عليه ﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ أى إنما حُكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (طه : ٧٣) . أى ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب إليك والترغيب « وأبقى » أى وأدوم

من هذه الدار الفانية . وفى الآية الآخرى : ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ (الشعراء : ٥١) . أى من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضا : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاء به رسولنا ، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ، ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ (الأعراف : ١٢٦) .

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإنه له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾يقولون له: فإياك أن تكون منهم . فكان منهم﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أى المنازل العالية ، ﴿ جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ (طه : ٧٤ . ٧٦) . فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون – لعنه الله – من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ويصب من فوق رأسه الجحيم .

ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان : ٤٩) .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون – لعنه الله – صلبهم وعذبهم .

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة فصاروا آخره شهداء بررة ! .

ويؤيد هـذا قولهـم : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (الأعراف : ١٤٦) .

فأين كانت آسية رضي الله عنها من كل هذه المشاهد التى مرت بنا ؟ .

يقول القرطبى فيما يرويه سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : فى هذا اليوم ، ظهرت آسية من قصرها بارزة متبذلة ، من شدة لهفتها على موسى ، وهى تدعو الله بالنصر له على فرعون . فمن رآها من آل فرعون ظن

أنها تبدّلت شفقة على فرعون وأتباعه ، وإنما كان حزنها وهمها على موسى عليه السلام خشية أن يغلبه فرعون ومن معه ، وكانت قلقة تسأل من تقع عينها عليه من الرعية : من غلب ؟

فيقولون : موسى وهارون .

فتقول : آمنت برب موسى وهارون .

علم فرعون بإيمان آسية واستشهادها عليها السلام

لما علم فرعون بإيمان آسية ، جمع وزراءه وأعوانه وشاورهم فى أمرها ، فقال : ما تعلمون عن آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها .

فقال لهم : إنها تعبد غيرى .

فقالوا له : اقتلها .

فضرب لها أوتاداً وشدَّ يديها ورجليها وأمر بأن توضع على صدرها صخرة كأكبر ما يكون .

وقال : فإن رجعت عن دينها فخلُّوا سبيلها .

ومر بها يوماً موسى وهى على حالها تلك فوقف ينظر إليها فأشارت دون أن تتكلم ، بما تعانيه من العذب على يدى فرعون وزبانيته ، وفهم النبى الحكيم إشارتها ، فدعا الله أن يخفف عنها العذاب واستجاب الله لدعاء نبيه موسى ، فأذهب الله عنها ألم العذاب فلم تكن تحس به .

وكشف الله عن بصرها ، فرأت قصرها فى الجنّة ، فقالت : اصنعوا ما بدا لكم فقد رأيت قصرى ومنزلتى فى الجنّة ، فذلك قولها : ﴿ رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنّة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ (التحريم : ١١) .

فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهى تضحك ! .

وكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة -

لقد استجاب الله للصدِّيقة التى كرَّم الله بها مصر آسية بنت مزاحم ،

فأراها قصورها ومنازلها فى الجنّة قبل أن تفارق الدنيا ، فماتت على ذلك ، وقبض الله روحها فى الجنّة رضي الله عنها ·

تكريم الله لآسية رضي الله عنها فى القرآن الكريم والسنّة النبوية

ما أجمل تكريم الله للمؤمنين من عباده ·

لقد كرَّم الله آسية ، امرأة فرعون ، رضي الله عنها فى القرآن الكريم حيث ورد ذكرها فى سورتين من سور الذكر الحكيم ، يتلوه المسلمون ويتعبدون به فى كل زمان ومكان ، وكما سبق أن ذكرنا فهى الصدّيقة التى كرَّم الله بها مصر وقد كفلت عبد الله ورسوله سيدنا موسى كليم الله عليه السلام ·

قال تعالى : ﴿ وقالت امرأتُ فرعون قُرَّتُ عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾ (القصص : ٩) ·

وقال تعالى فى سورة التحريم : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ (التحريم : ١١) ·

وأما ما يتصل بالسُّنة النبوية فحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض أربعـــة خطـوط وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم فقال رســـــول الله صلى الله عليه وسلم : (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون) ·

سلام على أكمل النساء آسية بنت مزاحم فى الأولين والآخرين ، ورضى الله عن خير نساء العالمين وجزانا الله عنها خير الجزاء إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ·

* * *

المراجـــــع

١ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ·

١ - السيرة النبوية الشريفة لابن هشام ·

٢ - سر الزمان لسبط ابن الجوزى ·

٣ - السمط الثمين للإمام محيى الدين الطبرى ·

٣ - سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ·

٤ - نساء النبى للدكتورة بنت الشاطىء ·

٥ - أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى للأستاذ حسن كامل الملطاوى ·

٦ - فاطمة الزهراء للعقاد ·

٧ - السيدة خديجة للمرحوم طه عد الباقى سرور ·

٨ - السيدة مريم العذراء للأستاذ أحمد حسن الباقورى ·

٩ - قصص الأنبياء لابن كثير ·

١٠ - نهج البلاغة من كلام الإمام على كرم الله وجهه تحقيق ابن أبى الحديد ·

١١ - تاريخ الملوك للطبرى ·

١٢ - نهاية البداية والنهاية لابن كثير ·

١٣ - الترغيب والترهيب للإمام لحافظ المنذرى ·

١٤ - العقيدة فى ضوء الكتاب والسُّنة : الجنة والنار للدكتور عمر سليمان الأشقر ·

١٥ - تفسير ابن جرير الطبرى ·

١٦ - جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ·

١٧ - يقظة أولى الاعتبار مما ورد فى ذكر الجنة والنار لصدّيق حسن خان طبعة دار الأنصار - القاهرة - ط أولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧١ م ·

١٨ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ·

١٩ - صحيح البخارى : اعتمدنا على متن فتح البارى - طبعة السلفية - القاهرة ·

٢٠ - صحيح مسلم · تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبعة دار إحياء الكتب العربية - بيروت - ط ثالثة ١٩٧٢ م ·

٢١ - عرائس المجالس للثعالبى ·

٢٢ - شهيرات النساء فى حياة الرسل والأنبياء للأستاذ عبد السلام أبو العلا ·

* * *

المحتويات